سُطوح أُرْسول

محمد ديب

سُطوح أُرْسول

رواية

ترجمة محمد ساري

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2011.
10، نهج ابراهيم غرفاء، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-881-1
الإيداع القانوني : 2011-5499

صدر هذا الكتاب في إطار
تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

ها قد رجعتُ. لم أنتظر طويلا لأعود إلى الفندق، لم أطالب بشيء. على كل حال، لم أعرف ما أفعله غير هذا، ولم تخطر ببالي فكرة ما. فأطرح على نفسي السؤال وأعيد طرحَه : ماذا حدَث ؟ ما الذي حدث كي يستوجِب القصّ، ويمكن قوله ؟ في المحصلة لا شيء ؛ ربّما كان سؤالاً إضافيا أشوّش به ذهني ؟ أشوّش به ذهني فقط، من أجل لا شيء. يا للمهزلة ! سوف لن أبقى جالسا هكذا، وأطرح على نفسي السؤال تلو الآخر. سيتّضح لي الأمر، ولكن ليس الآن، سأعرف إنْ كنْت على شفا حفرة من الجنون، ومعي الكون أيضا، أو أنها المدينة، أعرف أن ذاكرتي ستنفتح بعد قليل، وسيعود إليّ صفائي. ولكن ليس الآن. في هذه اللحظة، أنا بحاجة إلى الهدوء. هذا ما أنا بحاجة إليه. أن أتجاوز هيجاني **يمشي على ضفة دياجير الكون لأن النور رمى بلحمه في النار، إنّه لعنته ولعنة أيامه، فأبعَد عينيه عن كل الأشياء التي ينيرها** كي تتّضح رؤيتي، كي أحدّد لنفسي خط سير، أقرّر شيئا. يا للمهزلة، لم أتلقَ في حياتي صدمة مماثلة. إنّي مُسترخٍ على أريكتي، أحاول اسْترجاع هدوئي، وسأسترجعه، أو على الأقل أحاول، أفكر. أقول إنّني أحاول، أفكّر : سينتهي بي المطاف

إلى إيجاد تَفسير لكل هذه البلبلة ؛ بطريقة أو بأخرى، أنا بحاجة إلى تفسير.

أقول : «أنا بحاجة إلى تفسير..». في اللحظة نفسها، أنسى حاجتي، ولا أعرف ما قلته ؛ حينئذ، أقول : «الهدوء. الهدوء».

بعد ثلاث ساعات، أجد نفسي لا أزال أكرّر : «الهدوء. الهدوء».

أية ليلة هذه الليلة التي قضَيت ! عاجّة بالضوضاء، بالصخب، برقصات الوحوش، ولم أبحث عنها بعيدا هذه الوحوش، في الشوارع القريبة فقط. كانت تتلوّن، تتحرك، تسقط على ركابها، فتتحوّل تمارينها إلى رقصات توسّل، ثمّ تتغيّر مباشرة إلى سباق جنوني، سباق كنت أنا فيه الصيّاد، قبل أن أتفطّن أنني أصبحت الطريدة. وقد تواصل هذياني هذا الصباح ؛ كنت جالسا في الأريكة نفسها، تائها في الاحتمالات، مع أنّي لم أحتفظ ولا بواحد. وهذا الاسم الغريب في رأسي : الهرْج والمرْج ! ربّما يوجد ما هو أفضل من هذا : الخروج وزيارة المدينة، تستحق أن نتعب من أجلها ولو قليلا. هكذا أظن. ولكن هل يَسمَح الهياجُ الذي أنا فيه وحالتي النفسية المنهارة بالاختلاط بالناس، مع كل هذا الازدحام ؟ لا، من الأفضل استعادة الأشياء منذ البداية ومباشرتها بالترتيب : سؤال يتطلّب إجابة **شيء يريده بعناد ولو مقابل هموم ومصائب لا حد لها ؛ شيء أدرك فحواه أخيرا، وعليه أن**

يضحي بالنفس والنفيس، أن يترك كل ما بيديه، ويغادر حقل حقيقته الخاصة، أن يتحمّل الثقل، وأن يكابد عذاب ذلك الذي أصبح ضحية له، وينغّص أيامه، تلك الحقيقة التي أصبح مهووسا بها، تلك الحقيقة التي سُلبت منه قبل أي شيء آخر : هل رأيت فعلا ما رأيته أم لا ؟

أنّي رأيت، أمر لا ريب فيه : لقد عُرضَت تلك البشاعة، أو أيّ اسم آخر تستحقه، على عينيّ بشكل كاف كي أزعم أنّي رأيت فعلا، وأصرخ فوق السطوح، أصرخ إلى حدّ إصْمام العالم. أربع وعشرون ساعة، نعم أربع وعشرون ساعة مرّت وأنا ما زلت مهزوزا، مريضا. مَن أكون بالضبط : آه، من أكون بالضبط ! أنتَظر أنْ يُخبرَني به أحد، أنْ يُعلِمَني به أحد. أعترف، لقد ابتعدت نوعا ما وبسرعة عن ذلك المكان، لقد تنازلت بسرعة، ليس لحركة هلع، وإنّما لرفض قبول معقولية مشهد، فابتلعْت بشاعتَه بلا حراك وبلا قناعة. يا له من مكان ملعون ! ملعون ألف مرّة وإنْ بقي واحد في الكون ! إنّ الذكرى التي أحتفظ بها شبيهة بهذه الليلة : غامضة بشناعة، محتفظة بكل أنواع التهديدات، بوحوش مستعدة للانقضاض على وجهك. نعم على وجهك، من تلك الهزائم التي تجعلك تتراجع هاربا، ولا تشرّف الإنسان، كما لا تشرّف قوة طباعه، وصلابته، ولا قدرته على التخلّص من ورطة بكيفية مشرّفة.

حان الوقت لأستعيد رباطة جأشي. سأعود إلى تلك الأماكن. تلك الأماكن نفسها، لا يمكنني البقاء دون التأكد من وجوده مرة أخرى، شيء في غير محلّه، ومع ذلك يسمح لنفسه

بأن يكون دنيئا. يا له من اسم حقير، لا توجد أشياء أمقتها كما أمقت هذا النوع من الأسرار. ومع ذلك تسمح لنفسها بأن تكون دنيئة بشكل مُخجل. سأسترشد بالمعالم، عمارات وأكشاك جرائد وأضواء الواجهات والنصب التذكارية وملصقات السينما ؛ وأشياء أخرى قد لا أدركها الآن، جميع تلك الأشياء التي تكون قد جلبت انتباهي في هذه المدينة الجديدة عليّ والمجهولة تماما لديّ، ثمّ سنرى : من المدهش أنْ لا أعثر على طريقي بعد كل هذا، الطريق الذي أوصلني إلى غاية هنا.

إنّ الوضع أبشع مما كنت أتصوّر، قذارة بطمّها وطميمها، لقد عُدت منه للتوّ. من الأمور المستحيلة. من جديد، أغلقت على نفسي في الفندق، وليس لديّ خيار أفضل. في الذهاب، توجّهت مباشرة نحو المحيط، في أقصى استقامة ممكنة، لأنني تخلّيت عن فكرتي الأولى، المتمثلة في الاسترشاد بذاكرتي، مُقتنعا بأنّ معالمها ستتجلى لي لا محالة، ولكنّي لم أرتكب هذه الحماقة. دفعني إلهامُ آخِر دقيقة إلى الاعتماد على أفضل مرصَد ممكن : فندقي ؛ إنه جاثم على مرتفعات جرفير. من شرفتي، تُقدَّم لي المدينة كما على طبق. يا لها من نظرة ! رأيت طريقي مُسطّرا قبل حتى أن أضع قدميّ خارج الفندق. فبادَرت مباشرة إلى الدخول وسط شبكة شوارع المخطط الأول، المنتشية بالحركة، والالتحاق بالأحياء السفلية بأزقتها الرمادية، الملتوية : يستحيل تجنّب عقدة الثعابين الخشنة تلك، ومع ذلك يجب سلكها. فلم أتردّد، ولكن هنا يصبح عدم الانحراف عن

الطريق مخاطرة أكيدة. خطر آخر للمواجهة. كنت متأكدا أنّي في الوجهة الصحيحة.

لمْ أكَد أخطو إلا بعض خطوات بالداخل، لمْ أنجز إلا تلك الخطوات القليلة، حتى قفز فوقي بقوة وفظاظة شَلّتا كامل جسدي، ذلك الصمت المحلّق، المخيّم. لقد نسَيته، ذلك الصمت. انْبثق من تحت الأرض كما تنبثق عين وسط صالون، إن أمكن لمثل هذه الغرابة أن تحدث. ومشيت وسط ربطة خيوط من أروقة ملتوية، فترصّدت واستكشفت أعماقها، ولا يمكن لي أن أقول كم عدد الأزقة، والشقوق، تقدّمت في وجهة، ثمّ خُيِّل لي أنّي أخطأت. دروب ودروب في كل مكان. انتابني شعور أنّي تُهت، وغرقت خاصة في ذلك الصمت الرهيب الذي ينتفخ ويتضاعف وينصبّ حولي أسْمِطَته السرية، المتّحدة. أسمطة ذات التوازن التام.

أكّدَت عليه معالمُ كثيرة : إنّ المنازل التي حاذيتها مأهولة، حتى وإنْ كانت تحيط نفسها من الخارج بجميع مظاهر الإهمال. صارحْت نَفْسي بالقول : «ما فائدة التوقف عند هذه التفاصيل ؟ لماذا أثقل كاهلي بهذا الكم الهائل من الملاحظات ؟» وأجيب على الفور : «إنّ كل تفصيل هنا ضروري لفَهم ما رأيت، أو بالأحرى ما لمحته لمحة خاطفة، ويقول لي هذا الشيء، هذا الإحساس الذي لا يُخيِّب ظني، بأنها تقيم علاقات بينها، زيادة إلى أنّ لها علاقة أيضا مع اكتشافي، هذا الإحساس الذي لا يُخطئ أبدا».

أرَى الانحدارَ الذي انتهَت إليه جولتي بالأمس، أتعرّف على جدار الجسر في عمق ذلك الأخدود الوعر، حيث كانت خطواتي تحدث صوتا قويا على قارعته. أنا الآن في ذلك المنحدر المحاط بشبه ظلمة، ولم ينبثق لهيب الشفق ذاك إلا في آخر طرفه، نيران بحر بقي خارج الرؤية، ومع ذلك فهو المكان الذي أبحث عنه. إنه نفسه ؛ يوجد على مرمى يدي. أنظر، يجب أنْ أتذكّر جيدا. أنظُر إلى جميع الأشياء وأتذكّر مثلما يحدث لي مع مكان سبق لي أن رأيته منذ زمان بعيد في مكان ما، بعيدا من هنا. ثمّ انتابني الارتباك. أسرَعْت الخُطى : ماذا يوجد هناك، اختفَت الواجهة البحرية هناك في طرف الزقاق، كسّرَت البنايات القديمة تلك الاستقامة، فانتصبَت في وجهي، وأخفَت الانفتاحَ نحو البحر، شكّلت سدّا منيعا. أسرعْت الخطى أكثر. كيف أكون قريبا جدا من الهدف ولا أصل إليه ؟ كما لو أنه لم يكن هو ذاك المكان، كما أنه يتملّص من الرؤية. ينفتح الفضاء الذي يفصلني عنه فجأة على سلالم واسعة ولكنها غير متساوية. عندئذ، لم أطل التفكير، لم أتردّد، فبدأت أركض، ولم أكترث بالذين يشاهدونني وأنا أجري. على كل حال، لا يوجد قِط في الضواحي كي يُخرج أنفَه.

ألَمسُ حاجزَ الحجر الأبيض، أتّكئ عليه. يصلني إلى الخصر. أغرق في تأمل المحيط. كما لو أني أتيت خصيصا من أجل هذا. ذلك أنّ النورَ كله تجمّع هنا، تحوّل إلى سائل. نورٌ لا حدّ له، يُدحرج أمواجه اللامعة الثقيلة، لا يتوقف عن الحركة، عن الاقتراب دون أنْ يصل أبدا. أذهلني المشهد **كان منقسما**

بين ما يشاهده في الخارج، هذا النور، هذه اللعنة، وبين ما يراه في الداخل، النور نفسه، اللعنة نفسها، أمكث هنا. ورغما عنّي بدأت عينايّ تبحثان، تُنّقبان، تذهبان من زاوية إلى أخرى، تبادران إلى فعل ما عدت من أجله إلى هذه الأماكن. وماذا يفعل المحيط أثناء تلك الفترة، إنّه يتسلى. أتأمله، حائرا، نصف حيرة فقط، مندهشا، نصف دهشة فقط : أيّة لعبة يتسلى بها ؟ يقال بأنه كان ينادي، لا يتوقف عن النداء. ينادي مَن، أو ماذا ؟ جلب الانتباه، هذا ما يريده ؟ ثبّت عليّ عيونا شبه بشرية، عيونا بالآلاف، إنه مغطى، لا أرى نفسي عرضة لهذه الكمية الهائلة من العيون المبعثرة. أو أنه يحاول تهدئة، تنويم شيء ما بداخله كان يشغله، ويترك أنظاره تتجه إلى جميع الجهات، هذا هو، شيء يبقى دائما مجهولا لدينا. فكّرت : «ربّما لن تبقى كذلك لديّ».

لا شيء يحدث من هذه الجهة، سكينة الأشياء تزيد ثقلا، ليس إلا، يدحرج المحيط الأفكار نفسها، أفكار قيد التكوُّن الدائم، المحيط مثلما هو، هذه الأفكار مثلما تنساب، متحركة، ملتبسة بعضها ببعض، قيد التكوُّن، دائما قيد التكوُّن، أشعر بنفسي متحرِّرا كلية من حركاتي، وأميل فوق الحاجز ولا أكترث إلا باستعادة حركات أمسي، الحركات وحدها، وأكرّر تلك الحركات. أملا في... ربما لأنجح في... تحديد الحدّ الذي سينكسر فيه المدّ. الفجوة الضخمة نفسها بجدرانها الداخلية العميقة تتثاءب بشراهة عند قدميّ، واجهات الغرانيت الصلبة

نفسها تتمزّق داخل عمق رهيب وسط الأمواج، فتتشكّل هاوية ضخمة يحميها المضيق نفسه ضد عرض البحر.

أزيد انحناءً فأرى الصخور المقرفصة في الأسفل كما قطيع داكن من الجسئيّات، تسوطها الأمواج بباقات قوية من الزبد. وهناك في العمق، تتكدّر المياه في زوابع بلون سواد الحبر، تمخر، تصطدم بالصخور في صخب رعدي، كزلزال آتٍ، ويتواصل التدفق الشرس عبر المغارات التي يبدو أنها تنحفر بعيدا تحت جرفير. إنّ الشعور الذي ينبثق من كل هذا لا يلزمني اليوم كما بالأمس، فيتعارض الإنذار الساكن في قلب الأشياء بشكل غريب مع الهدوء السائد في أعالي السماء. تزداد الدقائق للدقائق. فلا يمكن للشلالات الضوئية التي تتدفق حولي أن تبعد عني الإحساس بأنّ هذه الظلمات المهددة تحاصرني.

في نهاية المطاف، لا شيء يريد الظهور، ولا أعرف هدف صيدي. ربما يكون هذا اللاشيء الذي تؤكّده جميع الأشياء حولي. سيكون هو الجواب. «بكل تأكيد ! حينما نكون حَمقى إلى حدّ الجري وراءه». إنّه صوت المحيط الأخرس.

أتعبَني هذا التفتيش العقيم، سأقوم وأرجع القهقرى بارتياح كبير، في تلك اللحظة بالذات، برز تموّج زواحف على الصخور الخضراء. شبه تموّج خفيف جدا. أكثر مما كنت أتصوّر. خلال استكشافي السابق، فكّرت : «إنها زواحف ؟ هذا غير مُمكن». ولكن الآن ؟ الآن، إنْ وُجدَت حيوانات، فإنها تذوب بشكل رائع مع الحجر والدليل ليس صعب الإثبات. سواء كانت حيوانات

أو أي شيء آخر، فإنها تحت مراقبتي، أصرّ على أن لا تغيب عن بصري في تلك الشقوق مع كل فجواتها الممكنة وأنا – لا، ها هو الغثيان يصيبني من جديد، إنه فوق طاقتي، أهرب من جديد، عاجزا عن مواصلة هذه المراقبة لوقت أطول، أهرب مثلما فعلت بالأمس.

أبرَدْت تقريري، هكذا أضع خطا على سبعة أيام من الكدّ. تقرير لكل أسبوع، إنه الثالث الذي أرسله، ولست في جرفير إلا منذ أربعة أسابيع، الأمر عادل تقريبا، ربّما تجاوزت الحدّ. إنه أدنى وقت للقاء الأشخاص الذين سيشكّلون علاقاتي في العمل، للاستقرار، رغم أنّ استقراري لم يتطلب وقتا ولا جهدا : شقة بداخل فندق بالحي العتيق لجرفير حلّت المشكلة، زائد أسبوع كي أتأقلم مع حياتي الجديدة ؛ هذا ليس مبالغة مني، وأظن بأنّ إرسال ثلاثة تقارير شيء كثير في حدّ ذاته. أتواجد في جرفير بقرار من حكومة بلدي، أشغل منصب... كيف يسمى تدقيقا ؟ مُكلّف بمُهمة، هكذا أسميه. هذه تسميتي، لأنني لا أشغله بصفة رسمية، هذا المنصب غير موجود، ولا تعترف به دبلوماسيتنا، التي تتوفّر على ترسانة من الموظفين المعتمدين في السفارة التي تمثلنا في هذا البلد. توجَد في العاصمة، سفارتنا، ولا علاقة لي بكامل هذا العالم الجميل الذي يجهل حضوري هنا بكل تأكيد. مُهمّةٌ بعُهدة بسيطة، ومع ذلك أتواصل مباشرة مع السلطة المركزية. لم أكن أنتظر هذا القرار : «كان لا بد منه»، هكذا كان سيقول الأستاذ الذي كنته، والذي كان عالمه يتوقف عند أبواب المدينة. (كان يتأقلم معه بشكل جيد – بحكم أنّ العالم لا يمتد أبعد من ذلك. كان

يحلو له تكرار أمام طلبته : «كل شيء يوجد في كل مكان، وفي أُرْسول أيضا ». ربّما كان على حق.) يا للحماقة، كم كان بخيلا في استغلال وجوده ! أربَعة أسابيع فقط كانت كافية كي لا أتعرّف على نفسي في ذلك الأستاذ.

تُستخدم التقارير التي أبعثها في أيام ثابتة كقاعدة لمفاوضات. أو ستُستخدَم، لا أعرف. صناعات، منتوجات صناعية، تقنيات، فن التسيير، يجب عليّ الكتابة حول كل ما يمكن استغلاله عندنا. ربّما فكّر أحدهم أنّ إرضاء شروط مهمتي كانت ستكون أوفر في العاصمة وليس في جرفير. لا تصدقوا هذا الكلام. يمكن لأي شخص أن يؤكّد لكم أن الحاضرة الحقيقية هي جرفير. هنا يوجد حقل العمليات الأمثل بالنسبة لي : مع كل ما يحدث، كل ما يمكن مراقبته، لا شك في الأمر. ضفُوا إلى هذه الرغبة، رغبة غير معلنة في الدوائر العليا ولكنها أكيدة، في إبعاد نشاطاتي عن الفضول، وبالتالي عدم حشر دبلوماسيينا أنوفهم. مثلما ترون، لا تنقص الحُجج التي أوجدتني في جرفير، وليس في حضن هذا البلد الإداري. إلى آخر دقيقة كنت أجهل طبيعة الشواطئ التي سيلفظني إليها قدري – ربّما بسبب مُقتي الغريزي البشع للتغيير أيضا – لذلك فلم أحيّ نقلي بكامل الحماس المطلوب حينما أخبروني بالأمر، آه، لا. ولكن احكموا بالأحرى على وضعي، الوضع الذي كنت فيه آنئذ : عُرضة لأبأس الأزمات المعنوية، أزمة تجعلك تجثو على ركبتيك وتبكي. ببساطة، وصلت إلى حالة رفَضْتُ فيها أنْ أواصل الحياة. كنت أعجز عن القيام بأدنى

قرار، أجد نفسي بلا قوة ولا إرادة أمام أفعال بسيطة كالذهاب إلى الجامعة، وارتداء الثياب لهذا الغرض، الإجابة عن رسالة، متابعة حديث، ولا أتكلم عن رؤية الناس ومخالطتهم. حاولت أنْ أضعَ اسْما لهذه الحالة. أدركت بسرعة أنها مبادرة فاشلة لم تجلب لي التضليل المنتظر. ومع أنّي كنت أملك تفسيرا للضرّ الذي يقضم أحشائي ولا يترك لي ولو بصيص راحة، من المفروض أن يكفيني هذا. بالفعل، لقد فحصني طبيب قبل أشهر قليلة، الدكتور رحموني، صديق قديم، مختص في أمراض السرطان. كان طبيب العائلة وصديق والدي. ذهبْت عنده على هذا الأساس، وليس لأنه مختص في كذا أو كذا من الأمراض، وكان قلبي قد بعث لي إنذارا. بدأت المشكلة من هنا. ابتداءً من تلك اللحظة، بدأ التقويض، الانهيار الهادئ، بلا ضوضاء. ولم أكفّ عن التساؤل منذ ذلك الحين : هل قدّر هذا الطبيب الصديق نتائج قراره المتمثل في توقّفي عن القيام بأي نشاط ؟

«لفترة معينة، خمسة أسابيع».

اتّخذ تلك الهيئة الجادة التي يستخدمها عادة لطمأنة مرضاه، ولكن خمسة أسابيع : «وبعد ذلك سنرى»، هكذا قال.

زيادةً على أنّه تَصرّف معي بتلك المناسبة كما يمكنه أن يتصرّف مع أي مريض مجهول، وهذا زاد من تأجيج أعصابي، كما أنه لم يكن ليحسن التصرّف لو وضع في رأسه هدف

إيقاظ شكوكي. والقول أنّه نجح ليس بالأمر اليسير، سيفهم قصدي الأشخاص الذين مروا عبر هذا الدرب. لم أكن أجد تفسيرا مقنعا لسلوكه في ذلك العهد. كما أنّني لمْ أجِد تفسيرا لسلوكي أيضا. يكون الدكتور رحموني، المختص المَشهور في السرطان، قد فكّر أنّي ألعب سلفا على وتر الشقاء عندما ذهبت إلى عيادته. إنّ النقطة، أو الدُمّل الذي ستتشكّل حوله القَرْحة التي ستنضج وتسمّم روحي، كان يجب عليّ البحث عنها هنا. بالنسبة لي، كانت قضيتي واضحة، أصبْت بداء الأدواء. وأضيف مرةً أخرى أنّ هذه الفكرة لم تكن ربمَا لتخطر على بالي لولا أنّ الدكتور رحموني ساهم بزرعها في ذهني لأنه قدّر أنّ منحه إياي تفاصيل الفحص كان أمرا ثانويا. ذلك أنه لا يستطيع القول بأنه لم يفعل، ولم يجنّد مسئوليته. لقد تشكّل عندي سخط صادق خلال الأيام الطويلة التالية، لا أخفي عنكم ذلك، كما لا أخفي تلك الطريقة البلهاء، المازحة، التي طردني بها.

اكتشفت الأمر بعد ذلك بفترة طويلة، وربّما بعد فوات الأوان، كان يعرف ماذا يفعل. آه، فقط لو لم يكن مُذنبا بتلك البشاشة المزيّفة، البشاشة المهنية. لقد شوّش كل شيء، بل أقول أنّ تلك الطريقة المازحة هي التي شوّشت ذهني. في حقيقة الأمر، كنت أتلقى من يديه هدية لا تقدّر بثمن في الوقت الذي كنت أعتّب باب عيادته بذلك الطعم الحامض في الفم الذي لم أنساه، والذي لن تنسوه أبدا، في حياتكم، بالسخط عليه وعلى طرق تعامله. ولكنّني لمْ أكن في حالة تسمح لي بإدراك مغزى سلوكه وتثمينه،

وبسبب سوء التقدير هذا، عشت بعض أحلك ساعات وجودي. نعم، بعض الساعات الأكثر ظلاما. وطبعا لم يعرف الدكتور رحموني شيئا من هذا، يجب أنْ يبقى دون أن يعرف شيئا.

في الخارج، مشيت، وروحي تمتلئ سوادا، مشيت، وفجأة لم أعد أرى جدوى لحياتي، ولا لأيّ شيء حولي، ربّما باستثناء التسكّع، ذلك الحلم السيّئ الذي يطاردني من شارع إلى آخر، ذلك التيه الذي دام طويلا، طويلا جدا إلى حدّ أنه نصّب حولي مدينة أُرْسول الآهلة بالأشباح حيث، وأنا شبح أيضا، أتعرّف على نفسي كذلك أحيانا، وأحيانا لا، داخل الشبح الذي تضاعفه مرايا المحلات في طريقي. التعرّف، عدم التعرّف، الإحساس بالقلب يفيض بالثُفل، فغرقتُ في الرعب خلال لحظات قصيرة. ثمّ انبثق ضوء خافت وسط هذا الهلع، فالتحقتُ ببيتي، معيدا تقدير وضعيتي بسكينة أكثر.

إلَهي، كيف كانت سُحنتي آنذاك ؟ بدَت نظرة عايدة زوجتي راجمة في اللحظة التي وقعَت عليّ. لَوْ قدَّر لها أنْ ترى نفسَها في تلك اللحظة لكانت أوّل المذعورين. ولكن كيف كانَت سحنتي آنذاك ؟ عايدة هي التي بادرت إلى إثارة الحزن. لمْ أرو لها إلا القليل من كلمات الدكتور رحموني، ما أن باشرت بإخبارها بالموضوع حتى رأيت تقاسيم وجهها المستوية الجميلة تتكدّر، تتشنّج، وتُظهر تصلّب الحديد. لم أندهش، فواصلت مناجاتي متجنّبا النظر إليها شفقة عليها. ومَع ذلك حدث الانفجار، مثلما كنت أتوقّع. لم تتحكم عايدة في أعصابها،

تشبّثت أصابعها المسلحة بأظافر مطلية بالظهر المبطّن لإحدى كراسي الصالون وانفجرت بالبكاء. بكَت من الغيظ، أدركتُ ذلك مباشرة، بكت من الغيظ لأنّ... في حقيقة الأمر، كنتُ أجهل السببَ، ربّما لأنّ الضربة جاءتها مباغتة، ولأنّ المرض هو ذاك الذي تمقته أكثر، زيادة على أنّني كنت المستهدف من المرض الخبيث. بسبب أو بدونه، وبصراحتها المعهودة، لم تكن عايدة مستعدّة لتقبل المرض، وليس في نيتها أن تفعل – ولا أن تصفح، كنت على يقين من هذا الأمر.

لم تدركني ضغينتها. كان هلعي يضَع بيني وبينها عشرة محيطات ومثلها من القارات، إضافة إلى ما كان يفصل بيننا قبل اليوم، عشرة محيطات ومثلها من القارات، كنت أشاهد هذا الانفجار من الغضب غير مبالٍ بشيء. ربّما أصبْت بمرضي هذا عن مكر صرف، كنت الشخص الذي قد يتخيّل هذا النوع من الأشياء. لا تتحمّل جميع الحقائق أن تُعرَض في وضح النهار الذي ينيرنا والذي نعتبره بركة، ويمكن لبعضها أن تحوّل عالمنا إلى جحيم لو وقع لها ذلك. سَوف لن أضيف سوى كلمة واحدة إلى هذه القضية : لن أحتفظ اتجاهها بأي حقد، بالعكس سوف لن أحتفظ إلا بالاعتراف ؛ على الأقل مثل اعترافي بالدكتور رحموني، ولكن لأسباب متعارضة تماما. أجبَرني كلاهما، ودون قصد، أن أهجر الرجل الذي كنته، أن أهجره، وأهجر العادات والمبادئ والأوهام التي ارتبَط بها، وزادَها إيمانا. ربّما كنت ناضجا للتحوّل، وأعطيت موافقتي خلسة مني، فليس هذا الانضمام الصامت دائما ثمرة الخائن الذي ينام بداخلنا.

ولكن عايدة مثلما كانت، ومثلما هي عليه الآن، التي تسير في حياتها بكامل فتنتها، واحدة من السمّر الجميلات التي نقول عنها بعفوية : «ها هي واحدة كالغزالة»، إذا كانت العبارة لا تزال تستعمل دائما، وبعد هذا نكون قد قلنا كل شيء حولها، ومع ذلك نسينا الكلمة التي تتلاءم معها جيدا، هي التي تحبّ اللباس الجميل، كلمة «متأنقة» – امرأة أنيقة ! – متفتّحة كما ينبغي للمرأة أن تكون، مع هذا التغيير البسيط : لون بشرتها القرنفلي الذي تستمد سمرته منذ فترة من معبودات لا يظهرن إلا في جرائد الموضة، –لم تصل عايدة بعد إلى رزانة واستعلاء ابنتنا الوحيدة «إيلما» التي تقترب من سنواتها السابعة عشر رغم أنها تبدو في الخامسة عشر فقط. لقد استقبلت إيلما خبر مرضي ببرودة دم، يتخللها، إنه ظني الخاص، الرفض بأن تُجبَر على دخول لعبة لا تهمها، زيادة على احتمال أن تكون قبيحة. احتمال أن تكون قبيحة : رأيتها تتراجع خلسة، تضع نفسها بَمنجًى عن أية إصابة محتملة. بشَعرها الطويل المسترسل، تبدو مثل قطة وديعة، ولكن هذه القطة، الشاردة في مظهرها، كانت تعرف ما تريد وما لا تريد، وهو الشيء الراسخ في ذاكرة الأب. لا، لا تشبه عايدة التي، من جهتها، لم تتعلّم شيئا من عندها.

قبل قليل أبرَدْت تقريرا جديدا، وها أنا ألتحق بالفندق. خيّم الليل، أفكّر، أتصوّر المكان الكئيب. تنساب أفكاري تباعا لتنحَني على الهاوية كما كلاب الصيد التي لا تنتظر إلا لحظة الانطلاق، وتبدأ الأسئلة في محاصرتي، بل تعاود الازدحام

والتسارع في رأسي. أسئلة بلا أجوبة طبعا. ما به، هذا المكان، يا للمهزلة، كي يزعجكم بهذه الكيفية، كي يشغل مخكم، وينتهي به الأمر إلى احتلال كامل الأرجاء ؟ إنّ أقواهم ذلك الذي يستجوبني، من حيث يوجد، يقلّب الأدوار، يطرح دائما الأسئلة نفسها. مرآةُ شُعوري تعكس لي صورتي الذائبة في شبه ظلام الغسق، أمقت إشعال النور، أحب البقاء مع أفكاري، بلا نور، بلا شاهد. وأطرح الأسئلة نفسها. من الأفضل لي أنْ أنزل إلى المطعم لتناول العشاء، ولكنني لا أفعل. يتعشى الناسِ باكرا في هذه المدينة، كنت سأنتَظر ساعتَين إضافيتَين في أرْسول. تَمرّ الدقائق ولا تأتيني بأيّ جواب.

من الأفضل أنْ أذهب إلى قاعة الحمّام. أكرّر : «من الأفضل أنْ أذهب إلى قاعة الحمّام، نعم. لأمرّر قليلا من الماء على وجهي. لأمشط شعري». لا أتحرّك من أريكتي **مع ذلك الشبح، هذه الفكرة عن نفسه التي تواجهه، يمكن له أن يتيه بلا نهاية في العزلة الجليدية، يجري بلا نهاية، ثمّ أنهض.**

مسجّل في المطعم.

ولا واحد من هؤلاء الأشخاص اللُطفاء والمتميّزين الذين أراهم، حقا ولا واحد منهم. يتبادلون الابتسامات الظريفة، وتتنافس التحيات أدبًا ومجاملة، كتومة نوعا ما، كما تتنافس أنواع الزينة والبدل والنماذج الباذخة من الأذواق التي لا أعرف أكثرها، ليزدادوا أناقة وتألقا، ومع ذلك لا يبدو أنّ شخصا

واحدا منهم يشك في أمر ما. أنظُر إليهم، ويَبدو لي أنّ سخاء القلب والروح قد توقف منذ فترة طويلة عن كونه نتيجة تربية بسيطة ومشتركة ليصبح عنصرا من الشخصية. لا واحد من هؤلاء الرجال، ولا واحدة من هذه النساء، الجالسون هنا وهناك، لا يمثل هؤلاء ولا أولئك سلوك الذي يكتم سرا فاضحا، بتحفظ أو تحرّر، ولا حتى شبح إجبار على وجوههم حيث نقرأ كما نفعل في كتاب مفتوح. إنْ كان هناك افتراء، وحتما سيكون واحد، فلا يختفي داخل هذه القاعة بتهيئتها المزينة الفاخرة ؛ وأين سيكون حينئذ ؟ تَحت أقدامِنا، داخل الحفرة ؟ قد أصبَحْتُ مَوضوعَ رَيب في نظري.

ومع ذلك لا أستطيع إبعاد ذلك المشهد الذي رأيته هناك عنّي، ليس أبعد من الأمس القريب، لتلك المخلوقات الممتطية لكل منها صخرة، مخلوقات شبيهة بسلاحف بحرية، بل أفضل من هذا، بسراطين عملاقة، والتي كانت تحاول، تحت تأثير غرائز غير مدركة، الالتحاق بالصخرة المجاورة في اللحظة التي تتدحرج أخرى شبيهة لها باتجاه الفجوات، الآبار أو المغارات التي قد لا تكون نادرة تحت الصخور، ذلك أنّ بعضها يخرج منها. تُجَرجِر هذه الزواحف أجسادَها اللزجة، بخفة قد تقل أو تزيد، وتتدافع للاقتراب من الماء أقدر ما تستطيع. تتدافَع للاقتراب مِن الماء أقدر ما تستطيع، تحاول أن تصيد سمكة ما دون أدنى تعثر ممكن. ولكن الوسيلة التي استخدمتها للوصول إلى مبتغاها تتحدّى جميع الاحتمالات، تبقى غريبة، لأنّ المدهش في الأمر هو أن لا واحدة منها تقرّر الغطس وسط

الأمواج والاقتراب هكذا أكثر من طعامها. تتدافع أقدر ما تستطيع للاقتراب من الماء وتلزم مكانَها مُنتظرة.

نعرف أنّ الحيوانات البحرية، وإن كانت رعناء في اليابسة، فإنها تسترجع في وسطها الطبيعي كامل حرية تحركها العجيب. الظاهر أنّ التي أراقبها لا تتمتع بأدنى بصيص من هذه الخصلة. كانت مؤخرتها مثيرة للسخرية – مضحكة ومزعجة مثل زائدة أغلظ من الأخريات، وكانت صلابتها بالأخص بشعة. حينئذ نفهم لماذا، بمجرّد انطلاقها تتشبّث الأقدام الأمامية مباشرة بصخرة بحيطة كبيرة قبل أن تتجمّد من جديد ؛ ثمّ تستأنف حركتها. كان ذلك بسبب مؤخرتها.

بعد تفكير، يكون من العدل أن نفترض أنّ الأمر يتعلق بالعناكب عوض السلاحف أو السراطين، ولكن هل توجد عناكب بحجم كلاب حراسة، بل وأين توجد ؟

هذا هو، سأذهب إلى السينما هذا المساء. يجب تسلية النفس بين الفينة والأخرى، تَغيير الأفكار، الشيء الذي لا أفعله باستمرار. ليس لأنني أكره السينما في حدّ ذاتها. لا أتحمل المكوث محبوسا داخل ظلمة قاعة، هذا هو، محبوسا لفترة طويلة. إنّ هذا يثبّط همّتي، أحس بالاختناق. يعد الفيلم (الخادم) الذي نصحوني برؤيته في الفندق بأنّ يكون مسليا حقا، لقد أنجزه مخرج من البلد، جرفيري أصيل. إنّ هذه المرجعية الأخيرة هي التي حسمت اختياري. أعترف بأنني متشوق لرؤية عمل سينمائي خرج من مثل... هذا المحيط، وكيف سيكون.

أخبروني أنه (الخادم) عادة ما يتردّد على هذا المكان. فبقليل من الحظ، باستطاعتي مصادفته في الشارع ؛ ولكنني كيف سأتعرّف عليه ؟ السينما ! تتواصل الشعيرة السحرية، تُبعَث من رمادها مجددا، لا محدودة في تمظهراتها وتنوّعها، يُحتفى بها باستمرار، احتفاء لا يتوقف. وأية شعيرة، الشعيرة الوحيدة، تلك التي تطرد الموت بالتعزيم ! سوف لن يتخلى البشر عن التفكير بأنّهم سيتغلّبون يوما على «الغاوية» التي لا يغمض لها جفن، أو على الأقل سيروّضونها. يضاعفون من عملياتهم الإغرائية، وأدوارهم التحايلية : يبدو أنها تقبل اللعبة. يُقدّمون لها القرابين وإنْ كانت رمزية كما على الشاشة مثلا –ولكن ما العمل معها في الشارع ؟– يبدو أنها تغمض عينيها. إنّ هذا الحلم الذي يرى فيه الإنسان نفسه أبديا، لا يتجلى بالشكل المطلوب إلا في ظلام قاعة سينما. هنا يهيمن الإيمان ولا يكون أعمى : تتمدّد الحدقتان، وتكتشفان بأن النهاية لا وجود لها، لا تحدث أبدا، وأنّ كل موت ليس إلا تزييفا، ينهض البطل، ينفض الغبار عن ملابسه، يبتسم لرفيقته مُعترفا : «أشعر بجوع غول»، قبل أن يتوجّه إلى مطعم الممثلين. وهذا نعرفه جميعا، أنتم وأنا. نعرف أيضا ما ينبغي أن نفكّر فيه حول هذا الحل المواجه للموت.

يا لها من أفكار حول فيلم بسيط، مع أنّه غريب الأطوار، وله قدرة إضحاك حقيقية. من البداية، يغرينا أسلوبُه المهمل بشكل مفرط –مجرّد إحساس طبعا– وقسوتُه المحسوبة بدقة : تضاد أو لقاء متقن لتشكيل خليط مفجّر. فاضت القهقهات

في ذلك المساء. تدفَّقَت أمواجا أمواجا، فتتابعَت إلى حَدّ خشينا فيه حدوث نوبة أعصاب لدى بعض المتفرجين، وبالأخص لدى بعض المتفرّجات. عجزْت عن تذكّر العنوان الدقيق، رغم أنه يتكوّن من كلمة واحدة، قصيرة جدا، مثل فيرا أو إفري. غير مهم، سأبحث عنه بعد قليل على الملصقات المعلّقة على جدار بهو الفندق. لنضيف عنصرا أصيلا آخر، يتمثل في حضور المخرج بداخل الفيلم، ويمكننا القول فعلا بأنّه موجود وسط عتاد الكاميرات وكوابل الشاشات والمصابيح، محاطا بالعمال المكلفين بتفكيك وتركيب الآلات. يسيّر، يصرخ، يشترط من الممثلين القيام بوضعيات خاصة، ينفجر غضبا في كل لحظة، يُجبرهم على إعادة تمثيل الأدوار بلا شفقة، يعاملهم كما تعامل الألعاب، ولا إرادة لهم إلا ما يمليه عليهم، ولا حياة لهم إلا ما يتخيّلها لهم، هو، هو وحده، دائما هو، الآمر الناهي، مثلما كنت أفعل أيام أستاذيتي حيث كنت أعطي دروس العلوم لرؤوس فتية. لكن الاكتشاف العبقري لا يكمن في إسناده لدور داخل الفيلم، وإنما في تحويل صاحب العمل إلى مثل هذا الساخر الطائش. يتسبّب حضورُه الدائم، الطاغي، المرضي، في مواقف ساخرة متتالية، وفي تهييج مستمر للمتفرجين الذين يوشكون على إسقاط القاعة على رؤوسهم من الإفراط في الضَحك. يصل أثر السخرية إلى أقصاه في الوضعية المعروضة، قصة ممثلة مشهورة، صاحبة نزوات غريبة، تتسلّط بها على محيطها المرعوب، وهذا في اللحظة التي تكون هي أيضا كدمية بين أيادي المخرج يعاملها بفظاظة. لا ننسى الطريقة

التي أمرها بها، ابتداءً من الصور الأولى، لتدخل وسط ديكور من شأنه أن يمثل شقّة فاخرة أشعلت أضواءَها خادمةٌ مغناج، ثمّ طلب منها أن تتظاهر بالسكر، وتفتح أقفال معطفها لتظهر ملابسها الأنيقة، قبل أن تنزع قدمَها من خُفّها وتلفظ الحذاء بعيدا، ثمّ إجبار المصوّر على الركض لالتقاطه على أربعة أقدام، وتفعل كذلك مع الخف الثاني والحقيبة اليدوية والقفازتَين وكل قطعة من ثيابها، بما في ذلك الداخلية منها، ولا الطريقة التي يَصرخ بها في تلك اللحظة بالذات آمرا إياها بارتداء فستان النوم الممدّد على ظهر أريكة فيما كان الجمهور يكاد يختنق من الضحك.

ليس لزوجتي عايْدَة إيمان إلا بجمالها، بجاذبيتها، هي الطويلة القامة في فساتينها الداكنة، الباهظة الثمن كما لو أنه كان تنازلا منها، وشعرها الأسود بحلاقته المميّزة الذي يتدلى عاليا على كتفيها وحول رأسها في حركة دائرية، وكذا في قابليتها لاحتضان الحياة، بشراهة تتعلّق، كما ثقتها، بالعبقرية وهي بمثابة ذكاء خاص بها ؛ نعم، إنه ذكاؤها الخاص، أقوله بلا مُزحة. ليسَت هي التي تكون قد ضحّت بالعدد الكبير من الأطفال الذين يُفترض أنها تأتي بهم إلى الحياة، هذه المرأة الجميلة التي ستبقى كذلك لمدّة طويلة بلا شك. أنْجبَت طفلةً واحدة، ولمْ ترد غيرها، كما لو أنّ هذا أيضا كان تنازلا منها. وأنا الذي أتيت لها بالمرض. بصراحة، لم أعرف كيف أعيش، فهل سأعرف كيف سأموت ؟ فكّرت : «سأقوم بحوصلة ؛ حوصلة جميع هذه الأمور». أكيد أنّني سوف لن أنهي السنة، هذه هي الحوصلة الفعلية، فكان هذا الاعتقاد النهائي يتغلب على جميع الاعتقادات الأخرى. أكيد أنني أملك حرية رفضه، فبإمكاني استعادة خيط أيامي الماضية، في الحاضر، أتشبّث ببعض لحظات الذاكرة السعيدة تحسبا للتخلص من مخالب القاتلة اللطيفة. لا أرى نفسي أسقُط في هذه اللوحة. لا يطفو بداخلي، في المكان الذي أنا فيه، على هذه الحدود المتذبذبة، إلا

إحساس بأنّي حلُمت حياتي وأنّه حان وقت الاستيقاظ. على كل حال، ستكون تلك الأسمال التي اقتلعتها من الماضي، أنقذتها من النسيان، قد ذابت بين أصابعي، ذلك أن قرار الوجود لم يعد ملكا لي برغم المجهود المبذول لإبقائه تحت سطوتي. تقلّص إلى لا شيء ؛ لم يعد الأمر بالنسبة لي... تعلّق الأمر بشيء أكثر من تعلقه بي **لقد أعطت له الحياة ما كان ينبغي أن تمنحه له، وما كان يمكن أن يحدث له قد حدث، وليس له أدنى شك في ذلك** هذا الشيء الذي لم يتخلّ عن تحفّظه، دون أن يتوقف لحظة عن مشاهدتي وأنا أكافح، يسمعني وأنا أتكلم، وربما أفكر، وسأبقي كذلك إلى آخر نفس من حياتي، ولم تبق لي من رغبة في نهاية المطاف إلا أن أطلب منه الصفح عن حالة المرارة والألم والبؤس التي وقعت فيها، ربما كان الوضع سيكون أفضل بهذه الصورة.

إلا إذا فضّلَت الحياة اللعبَ على لوحتين، وربما على لوحات عديدة، إلا إذا ارتضت وضع رهن بيد على لون بعينه –ونعرف بكامل اعتقادنا أنه لون سوء الحظ– وبيد أخرى رهن مماثل على لون الحظ، فلا أرى بأية كيفية أفسّر ما حدث لي، أو بدأ يحدث. انفتح بابٌ أمامي، وأقولها بكل عفوية، ليُظهر لي واقعا مغايرا، يوما مجهولا، مهيبا، وبقوة سرية. كل شيء يدفعني : ولم أحاول المقاومة. هل تجاوزت العتبة، ليست لديّ أدنى فكرة بما أريد اعتقاده. همّي الوحيد هو البحث عن كيفية التغلب على الحياة، وها أنا ألج داخل بطحة من الصمت حيث

يمكنني سماع خلجات قلبي وأصمت، وكان سماعي واضحا، هادئا، دون أن يمسّ بكيان هذا الصمت.

استأنفت تدريسي بعد مرور أسابيع الراحة الخمسة التي وصفها لي الدكتور رحموني. اليوم أجد نفسي في جرفير.

اليوم، مرّت أربعة شهور بالتحديد منذ أن أقمت بجرفير. أربعة شهور من القيام بمهمة خاصة، وها أنا أباشر شهرا جديدا، والشيء الغريب أنّ شعورا بمتعة الحياة والعمل تملكني ونما بسرعة، ولم تعد شوارع المدينة التي أصبحت أعرفها جيدا تثير في نفسي التعب والملل كما سابق عهدي بها. بدا لي أنه سبق لي أنْ قلت أنّ جرفير هي ثاني مدينة البلد، ومع ذلك فلا نتصورها مدينة ضخمة تبتلع سكانها وتشكّل آفاق الإنسان الثابت –فقد سبق لي أن زرت بعضها ! – بتلك الصحاري الصخرية الممتدّة بعيدا، إلى أبعد نقطة نذهب إليها. عظيمة، هي الكلمة اللائقة بجرفير، دون أن تسقط في الإفراط. لسنا في عشية استقبال زيارة رئيس ملائكة بسيفه الناري، إنها مدينة تعرف كيف تواجه الأحداث ببرودة دم، وستبقى كذلك لمدة طويلة في رأيي. ويبرز ذلك في مظهر تنظيم المنازل. سقوف قبلية رائعة مطلية، جبهات المنازل مقطّعة بأناقة، واجهات مزينة من الخارج بمشاهد مجازية أو رعوية تشهد على وفاء جميل للتقاليد، ومن الداخل ستصادفون تعبيرا عن إيمان راسخ بقيم التقدّم المجسّد في شكل رفاهية، وأية رفاهية، سأترككم تتخيلونها.

أعيش في حيّي المنتمي إلى جرفير العتيقة، المحاط ببيوت من هذا النوع، وفندقي واحد منها، أمرّ كل يوم أمام بيوت أخرى، وكل يوم يزيد إعجابي بها. المدينة الحديثة تملك أيضا مغرياتها، إلى حدّ تترككم مذهولين من المفاجأة، حتى وإن تعلّق الأمر فقط بهذه العمارات، هذه المجموعات الواقعة في أحياء متعدّدة، والتي يسحرني منظرها عند كل رؤية. حقا تملك أناقة وجرأة التجديد، الرائعة هنا، مثيرة للذهول. لا أندهش إنْ جاء رجال الفن والمعماريون والمهندسون، أقصد الأجانب منهم، لأنهم سيجدون مادة ثرية للدرس بل للتفكير أيضا. أقولها دون تردّد، إنّ هذه الطريقة الذكية في مزج القديم مع الحديث لدى مدينة جرفير تمنح لها صفة المعجزة، معجزة أليفة إن شئتم، إن أمكن لهذين اللفظين أن يجتمعا معا. أحيانا، وأنا أتجوّل عبر شوارعها، ينتابني إحساس كما لو إني أعيش واحدا من تلك الأحلام التي تذكرنا بأماكن لم نزرها أبدا قبل ذلك، ووجوه لم نراها أبدا. نجهل إلى أيّ حَدّ تمتد ملكيتنا.

إن المدينة التي تمنح لي هذا الشعور بالاعتراف الأقصى الذي يخيفني أحيانا تبقى مصقولة في واقع متين ومضياف. سأعطي أمثلة ليست إلا براهين يمليها الارتباط الذي أكنه لها. هكذا هو حسن الضيافة. إنه عام، ويرتبط بجوّ من الصرامة السائدة عند سكانها الأكثر تواضعا. وهذا يمسّ وترا حساسا بداخل كل واحد منا. وتر حساس فعلا، وقد لاحظت عند وصولي هنا كيف يحب كل واحد تسهيل حياة الغير. إن كل ما من شأنه أن يكون مفيدا لكم، أن يساعدكم على راحة

أكثر، تجدونه يتحقق بأريحية لا مثيل لها ؛ ليس فقط سعادة المواطن : سعادة البشر عموما، تُعتبَر مهمة مقدسة لدى سكان يشملهم الإجماع في هذه الإجراءات.

إنّ قانونا ذكيا وإنسانيا بهذه الكيفية قد يحيّر المسافر العابر في الوهلة الأولى، بالأخص إذا كان مثلي قد واجه مشاهد أخرى، فإنه يميل حتما إلى الريب. يبدو الأمر كذلك أمام هذه البنايات العتيقة التي لم أدرك في البداية أنه تمّت صيانتها ولم تُدمَّر، ولم أرَ تحت زخارفها إلا نصبا من الإفراط و... القِدَم ؛ فَعل الزمان فِعلتَه عليّ بشكل طبيعي وانتصر الانجذاب. خارج هذا المكان لا أحد يعرف الحياة على حقيقتها، ولا سعادة العيش في هذه الحياة. على مرّ الأيام، اقتنعت بالأمر شيئا فشيئا، وسأبقى كذلك. في كل مكان يبدو الوجود المليء بالزيغ والعمى عاديا، وعاديا هم الناس المنخدعون الذين يعيشونه : في أيّ مكان باستثناء جرفير، حيث انتبهت من الساعات الأولى عند قراءتي الجرائد أنه لا تحدث فيها أية جريمة، ولا أية سرقة، ولا يلاحَظ أيّ انشقاق بين سكانها، ولا تهزّ المدينةَ أيةُ فضيحة من أيّ نوع كان، كما يحدث في مدن أخرى لا أذكر اسمها. لقد تناسب هذا مع حدسي الأوّل وأضيفَ إلى موافقتي. ففكّرت : «هنا في هذا المكان ستبحث لنفسك عن إقامة، وربما لمدّة طويلة، هنا ستعيش وتشتغل. وتلك البشاشة على وجوه الأطفال ! وتلك الابتسامات الرائعة ! إنها لمتعة كبيرة أن تشاهد الناس وهم ينصرفون إلى أعمالهم، أن تتجوّل في وسطهم. يبدو البقالون أنفسهم على هيئة ضيوف

لطفاء عوض فرسان متلهفين على المتر والميزان». وزيادة إلى هذه الأجواء المريحة، تعرض واجهات المحلات، مثلما تفعل اليوم، كما أظن أنها فعلت دائما، وفرة المواد الغذائية ومواد أخرى بلا حساب : من هذه الخيرات التي لا نراها إلا مقطرة ونادرة تحت سماوات أخرى، فيبدو أن الاحتياطات في جرفير لا ينفد معينها، وهي وعد بعهد ذهبي لا تتحدّث عنه الكتب إلا في الزمان الماضي.

لست من أولئك المتشائمين السادرين. يعجبني امتحان إحساس الصنديد الذي لا يتزعزع، كما يريحني الأمن الذي تخلقه هذه الرفاهية حولي. فجأة، بدا لي أنني أضع قدما واثقة على أرضية أكثر صلابة. لقد عبّرت عن انطباعاتي الجيّدة، في هذه الفترات التمهيدية، للأشخاص الذين تَعرّفتُ عليهم في المدينة بفضل عملي. أجْمَعوا كلّهم على لطف أقوالي التي تُثلِج الصدور، كانوا يعرفون هذا عن مدينتهم، إلا أنّ صدورها عن أجنبي يدغدغ عواطفهم أكثر. ولم يكبر بعد ذلك التعاطف الذي كانوا يكنونه لي بلا أدنى حساب، لا يمكن الإفراط في مثل هذا التعاطف دون المساس بالصدق. ومع ذلك، في تلك الفترة رأيت نفسي محاطا بمراعاة خاصة : مراعاة يصعب الإمساك بها، شيء ما يقول لي بأنه اهتمام غير عادٍ. ولم يتغيّر موقفهم منذ تلك الفترة. وفي المقابل، لا تخفي المدينة افتخارها بالخيرات المادية التي تمنحها بسخاء جلي لأهلها وكذا للزوار الذين تشاء الصدف أن تطأ أقدامهم أرضها. ويتضح هذا الصدى عبر الملصقات والنشريات، فتهنئ نفسها، وهي

محقة في ذلك وعليها أن تفعل. ينبغي أن يكون الشخص نفسه سخيا كي يقدّر هذا الموقف بقلب نزيه ويهنئها بدوره. وإن كنت بحاجة إلى رواية الحدث والمناسبة سانحة، فأصدقائي حجة إضافية، هم ظُهَراء لي، لأنهم حكوا لي القصة من قبل.

قلت بأنه لم يحدث أن أرتُكبَت جريمة قتل في جرفير. المسالة بحاجة إلى تدقيق بسيط، لقد حصلت جريمة قتل واحدة : عرفت الخبر من هؤلاء الأصدقاء. كشفوا لي عن أدنى التفاصيل بلا ذلك الحرج أو التحفظ الذي يزهر تأنيب الضمير، أو بالعكس يعبّر عن وقاحة هادئة. لماذا لم أشر إلى هذا من قبل ؟ لأنه كان سيترك أثر خزي لا مثيل له، بشاعة بلا اسم عادة ما تشرَّبنا من رعبها، بينما ينبغي أن ننظر إلى هذه الحادثة في هذا البلد الذي نحن فيه بعيون مغايرة وأن نعتبر فعل هذا المجرم كظاهرة لا تُصنّف ضمن الجرائم وإنما، لنقول، ندرجها ضمن تصوّر خاص للأشياء. لقد صرّح صاحب الجريمة، وهو صانع قبعات، بأنه في قتله لزوجته وأطفاله الأربعة استجاب لتحقيق رغبة تمّ التعبير عنها مرارا داخل العائلة. فلا يتعلّق الأمر إذا بجريمة قتل لخمسة أفراد وإنما لانتحار جماعي وأن الجميع كان مع هذا الموقف، بما في ذلك القاضي. وأكّد لي الأصدقاء أن هذا الرجل لم يوجّه السلاح ضد نفسه بعد المجزرة، وهي نيته قبل العملية، لأنّه خضع في آخر لحظة إلى توسّل زوجته في آخر دقيقة حياتها. تَوَفى الأطفال بين ذراعيها، فطلبت الضحية الخلاص من الكاهن، مُقدّم القرابين، فاستجاب لها... يمكننا الإفاضة في تفسير هذا «الحدث» إلى ما لا نهاية. اكتفى المتحدّثون

معي بطرح السؤال التالي أمامي، وبدا كما لو أن القضية وجدت حلها كلية، في نظرهم على الأقل : «باسم أي شيء كنا سنقيم حاجزا من شأنه أن يصد تحقيق هذه الرغبة ؟ -ينبغي أن نفهم طبعا الرغبة في مغادرة هذا العالم- لا نتعب أنفسنا في البحث عن الكلمات، فلا يعارض أي دين، بل جميع الأديان تنوّه بالقبول الهادئ للموت، باستثناء الدين الحديث الساذج للحياة بأي ثمن. بالنسبة إلينا، لا تزن رغبة هذه العائلة أقل من الرغبة المناقضة، فلا نعرف مسئولية أعظم من تلك التي تفرض على شخص، دون رضاه المعلن، إجبار مواصلة حياة لا يطمح إليها، ولا يحلم إلا بمغادرتها».

ومع ذلك يوجد عرين الشيطان ذاك، فكيف يتسنَّى لنا نسيانُه ؟ لا يتلاءم مع الباقي، مع كل هذا، لا ينسجم ولا يَمكنني أنْ أفعل (أنْ أفكر، أنْ أتصرّف) كما لو أنه غير موجود. أو كما لو أنّه من ابتكاري. ما العمل إذاً، كيف أباشر معاملتي معه ؟ لا داعي للخوف، إنه يوجد في المكان الذي تركته فيه حتى وإن لم أعد إليه منذ أزيد من أسبوع. هل عليّ بأخذه، أو ربطه بالباقي، أو فصله ؟ ماذا يَحدث لو قمت بزيارة إلى هناك، زيارة خفيفة للنظر فقط. لقد أدّيْت اليوم التزاماتي المهنية في وقت أقصر مما توقعته. دورة إلى هناك، دورة خاطفة للنظر فقط، حتى وإن اقتضى الأمر تعويض هذا الوقت من راحتي الخارجة عن البرنامج. ربّما ابتسم لي الحظ هذه المرّة، وتعرّفت على هذه... اليساريع ؟ المحبوسة في ثنايا ذلك الثقب اللعين. ربّما أمكن لي أنْ ألصق لها اسما ؟ بدأ الانتشاء يصعد إلى رأسي، ككل مرّة، وبأدنى تكلفة. إنّ التعرف على مكانها فقط ليس بالأمر الهيّن، مشاهدة ظلالها في الأعماق الداكنة وهي تتلبّد ملتصقة بالأرضية والجدران. أمّا أنْ نطمح إلى شيء آخر... في اليوم الأول ظننْت أنّها عظائيات جامدة في نومها، إن كانت كذلك، فإنها لا تكاد تتميّز عن الصخور التي تلتصق بها كما الزوائد المعدنية. أكيد أنني لن أستغل

لا يعرف ما كان يبحث عنه ولكنه يعرف ما عثر عليه، كان يعرف ولكنه لا يجرؤ على الاعتراف في سرّ قلبه، لا يجرؤ على قوله بكل راحة ضمير حرية ظهيرتي.

لا تظهر الكائنات البشعة بسرعة أمام بصري الذي ألقيه على المكان بمجرّد وصولي، في ذلك الملجأ الذي يأويها بلا شك، مختفية، قابعة. بقَيت لفترة طويلة أترقّب حائرا. بعد مدّة بدأت تخرج، الواحدة وراء الأخرى. الواحدة وراء الأخرى، ولكنها لا تخرج من مكان معيّن – كانت هناك طول الوقت، إنما بدأت تتحرّك. إنْ أمكن لنا القول، لأنها تفعل ذلك ببطء شديد، إلى حدٍّ خُيّل إليّ أنّ ما أراه من حركة مجرد سراب أو هلوسة. ومع ذلك، عمّت الحركة شيئا فشيئا. كما لو أنّها استعادت ثقتها بمحيطها. في لحظات قليلة، كما لو أنها اطمأنت على أمنها، شيء غير معقول بالنظر إلى رعونتها، تضاعفت أعدادها بوفرَة مثيرة. أقسم أنّ هذه الرُّتَيْلاوات المتوحشة أحسَّت بشيء ما يجذبها، إن لم تكن جريئة أو مجنونة، أو الاثنين معا. تغطّت الصخور التي تسنّن عمق الفجوة بعُقَدها، وتصاعدت اليراسيع من كل الفُلوق. ولكن أغلبيتها سقطَت من جديد في جمودها بعد انطلاق طفيف، فمِلت إلى القول بأنها تعطّلت، حينما تقضي دقائق طويلة بلا حراك ولا إشارة حياة، وتحتل المكان المكتسب إلى أنْ تصنَع جسدا واحدا مع الصخرة. لا داعي للإشارة إلى أنّ محاولاتها أو رغبتها في التحرك تملك شيئا من العبث ؛ فلا داعي للإشارة أيضا إلى أنّ جميع المحاولات تنتهي إلى الفشل. ومع ذلك، ها هو المشهد الأكثر عجبا،

أو الأكثر رعبا : يبدو أنّ بعضها يباشر البعض الثاني ويتبادل معه الكلام. لقد بدا لي أنّي أسمَع همهَمة أشبَه بالانتحاب، دون أن أتمكن من تحديد مصدر انبعاثها. وصلت الهَمْهَمة إلى سَمعي برغم خفوتها وبرغم اصطفاق الأمواج. كيف : هل تُنتِج هذه الكائنات مثل هذه الأصوات ؟ ولكي ألغي كل التباس، وأضع حدّا لخطإ محتمل لحواسي، رحت ألتفت إلى جميع الجهات وأسترق السمع. إنّها فعلا هي، تنبعث الهمْهَمة من تلك الكائنات العجيبة، من تحت قدميّ، بل وأرى بعضَها يبادر إلى رفع عينيه باتجاهي. ولكنها لا تتأخر عن استعادة وضعيتها الأصلية لتريني رقابها من جديد كما لو أنّ المشهد الذي أمنحه لها لا ينسجم مع أذواقها، أو أنّ عيونها لا تملك القوة المطلوبة لتمتد إلى غاية العلو الذي أنا فيه – أو أنّ تشكيلها الجسدي يمنع عليها مثل هذه الحركات البهلوانية الطويلة الأمد. واختصار الكلام أن هذا الشح في الحركة لم يمنعني من ملاحظة أنّ رؤوس بعضها يختفي داخل كومة مجعّدة، بيضاء هنا، رمادية هناك – أكاد أقول لحية.

أحِسّ بأن شيئا ما بصدد التحوّل ؛ بداخلي، حولي، يصعب عليّ قوله. لا أضجر من التحوّل، ولكني لا أريد أن أظهر وجْها مغايرا للناس. كيف سيكون حالي ؟ يتحدّث الإنسانُ دائما عن نفسه، ولكنه ينسى وجهه، لا يفكّر فيه حينما يتكلّم. أو لا يتكلم. «وأين الحقيقي الذي يختفي في الخلف ؟» نعم، الحقيقي الذي يختفي في الخلف. لمن يشبه ؟ أنظر إلى نفسي في المرايا، صُدفة، تلك التي أجدها في طريقي. ينتابني شعور بأنني على وشك اكتشاف مثير... ومع ذلك لا أرى إلا وجهي ؛ ذلك الوجه المعروف لديّ، العادي جدا. يعود إليّ المرة تلو الأخرى، أبقى أمامه يتفرّسني، ولا يتوقف عن مراقبتي، فلا أشعر إلا بألفة قليلة معه. هذا هو الجديد. لم أعد أشعر بألفة مع الرأس الذي أحمله. ومن جهة أخرى، أتساءل إنْ كانت تلك التي أحاول رؤيتها تملك مظاهر إنسانية. أفكّر : «يوجد هذا الـ..». يوجد ذلك الذي يظهر، ذلك الذي يخون نفسه في غياب النظرات. هنا، هُدنة، هل هي مسئوليتنا فعلا ؟ -وهل نحن أبرياء كلية من الشيء الذي نتهم به المرآة ؟

إذا كان وجه يسكنني منذ بضعة أيام فهو وجه الدكتور رحموني. أظن أنّ تفكيري لم يستحضر هذا الرجل مثلما يفعله

في هذه اللحظة. أراه يحدّثني عن المرض مثلما كان يفعل في ذلك العهد البعيد عني الآن، حيث استسلمت إلى علمه وكفاءته في معالجة صحتي، ويتساوى الوجهان عنده، ويلتقيان في تلك السحنة الكهنوتية وهذا التتابع من التشبيهات الحقيقية أو المفترضة التي تضمن- كما ضمنت سابقا تواصل سلالة في رتل إلى غاية ذلك الوجه، وعبر ذلك الوجه. يظهر قناع ذلك الطبيب المختص، بتقاطيعه اللحمية الملساء، وأنفه الضيق الطويل، الذي يكتسي أهمية بالغة، بتلك الأصالة التي تريد أن يظهر الوجه مرسوما من الجانب، تماما كما في البورتريهات التي ترونها عنده وهي تقوم بالحراسة في نوافذها وتوجّه نحوكم فضولا أقل شخصية من هذا الأنف نفسه. هذا القناع، هذا الأنف. وبالأخصّ تلك العينان الرماديتان الصلصاليتان، تتقوّسان برشاقة، تكادان تلامسان الحاجبين، تحطان عليّ، كما أثناء لقائنا الأخير، نظرة كثيفة، بطول غير معهود، وليس ذلك من عاداته. إنّ سخرية القصة هنا أنّني لم أكترث بتلك النظرة الطويلة غير المعهودة. إنّ ذلك الرأس قد تلقى من أيادي الموت غطاء أكسيد البرونز والخلود الذي سيضعه في خط مستقيم تحت الأروقة السماوية وسط مجموعة مترادفة من الصور حيث ينتظره مكانه مؤشّرا بفراغ. كنت أتحدّث ولا أرى شيئا، ولم أتوقّف، ولا أصغي إلا لهواجسي الخاصة.

كان يستمع إليّ، يحسن الاستماع. كانت إجاباته تتساقط صائبة كعادتها، أحكام موجزة وغير قابلة للنقض ؛ صائبة بشكل مرعب. يستقبل مرضاه ببذلة المدينة، بسترة تنفتح على

صدار حريري أكْلَف اللون، وليس بالمئزر الأبيض أبدا، المئزر الذي حاولت مرارا أن أتخيله فيه، دون جدوى. ومع ذلك تلاعبِ بي. نعم، تلاعب، لا توجد كلمة أخرى. زيادة على أنّه لم يتخلَ عن ابتسامته طوال تلك المدّة. لم أُلمه على ذلك فيما بعد، بل أصبحَت الحادثة موضوعَ مزحة بيننا. وحينما اندهشت يوما من هذه الإجراءات الغريبة، ردّ عليّ بصراحته القاسية :

« أدرَكتُ من النظرة الأولى أنّ ليس بك شيء.

– وماذا بعد ؟

– ماذا بعد ؟ ألزمت نفسي بقانون أن لا أناقض أبدا شخصا يعتقد أنه مريض.

– قانون، هل تدرك حقا ما تقول ؟

– إنّ المرض هو آخر ملجإ لنا حينما تنغلق أمامنا جميع الأبواب ولا نعرف إلى أي ملَك، أو شيطان، نسلم أنفسنا. مِن الرعونة بمكان، بل مِن الخطورة، أن نحرم الناس من هذه المواساة ».

بقيت بليدا. أنْ أسمَع هذا منه، ومن جديد، كنت **الناس**. فرأيت نفسي عند الفحص الأول، فحص الذكرى السيئة، وأحسست بحزني السابق يستيقظ بداخلي من جديد ويبدأ في الغليان. ومع ذلك لم أقضِ وقتا طويلا في التفكير كي أعترف بجودة تأسيس نظريته وقبولها. إنّ ما يثير غيظي هي جودة التأسيس، لقد ساهمت في إثبات صحتها. مهما فكرنا أو

قلنا عن الدكتور رحموني فلا يمكن وصفه بالوقاحة. يرفض الاستسلام للأوهام وإنْ كانت سخية، وهو أمر مختلف. لم أعرف في حياتي رجلا مثله لا يعير اهتماما للأفكار الموروثة. لا، إنّي لا أشعر اتجاه صديقي إلا بالإعجاب والاحترام. أظن بأن الدهشة التي ارتسمت على وجهي كانت مثيرة إلى حدّ ارتأى فيه، رغما عنه، أن يقدّم لي شرحا :

« في مواجهة المرض، يحاول الإنسان الذي يصل إلى سنّ معيّنة أن يحمي نفسه من شيء ما، يمكن تسميته بالخطر : في غياب اسم له. لأنّنا لا نعرف بالتدقيق ما هو... **قول معلق لم يكد يخرج حتى استولى عليه الصمت، بحضور سماع لم يستوعب جيدا فحواه حتى حاصره الصمت أيضا، هكذا يرتبطان معا، القول والسماع، مجمدان معا في ما بعد القول وما بعد السماع، حيث يكونان في حالة كتومة، تثير الخشية والإغراء في آن واحد، ينتظر كلاهما كما لو أنهما يطمحان أن لا يكون فعلا القول والسماع أكثر وقارا وأكثر ثقلا...** ونريد بنوع من المفارقة أن نعرف في الآن نفسه وجه هذا الخطر، أو على الأقل رؤيته ولو من بعيد.

– حينما جئت عندك للفحص، لم أكن أشعر بأن خطرا ما يترصّدني، باستثناء خطر المرض. هل يوجد خطر أكبر من هذا ؟

– هذا ما أردتُ أنْ أشرحه لك. يمكنك أنْ تمرض ومع ذلك تبقى جاهلا بالخطر المحدّق بك. ثمّ يأتي الشفاء أو...

– الهلاك.

– وتبقى أنتَ جاهلا بالأمر».

يصيبك الهلاك وأنت لا تعرف شيئا عنه. في البداية، تملّكني الذهول ولم أجب. وبعد ذلك صرخت، انتابني إحساس جنوني بأنني اكتشفت شيئا : «ولماذا لا نبدأ من هنا ؟ إنه لزام علينا، أليس كذلك ؟»

«لم يفهمني الدكتور رحموني.

وبماذا يجب أن نبدأ ؟

– بالمعرفة. أقصد : مَعرفةُ طبيعة الخَطر. أتكلّم عن المرضى، لنضع أنفسنا مكانهم.

بصراحة، لا أعتقد، لست متأكدا بأنّه يَهمّنا كثيرا معرفته، أو بمعنى آخر، ليست هذه المعرفة التي تهمنا أول الأمر. إنّ ما يَهمّنا في رأيي هو المناسبة التي تُعطى لنا لإعادة الاتصال مع أنفسنا تحت غطاء، أو بواسطة، مثلما تريد، المرض. ماذا سيحدث بعد ذلك في هذه الحميمية : لا أحد يستطيع قوله، يبقى هذا الأمر لغزا دائما ؛ إن مبدأ مثل هذه المواجهة هو الشيء الوحيد الذي نحتفظ به والذي يبدو غير قابل للنقاش.

– في هذه الحالة، ما فائدة علاجكم، دوائكم ؟

– علاجنا، دواؤنا ؟ في هذه الاحتفالية الخاصة، يكتسي قيمة رمزية و...

تردّد الدكتور رحموني لحظة (لحظة حياء أو تحفظ ؟)، ما سمح له بأن يواصل بصوت حيادي، هادئ : «زادا معنويا».

أللسفر ؟

حينما أفكّر في تلك الكلمات، وبالأخص الأخيرة منها، لا أفهم كيف لم أنتفض وقتها لأطلب التوضيحات الإضافية اللازمة والتي كان واجبا عليّ المطالبة بها. خانَتني سُرعة البديهة ولم أفعل ولن تكون عندي فرصة فعلها مرة أخرى. سوف لنْ تكون لي فرصة فعلها مرة أخرى، ولا رؤية الدكتور رحموني، لقد توفي بعد فترة قصيرة بنفس المرض الذي شككت أنّه اكتشفه عندي قبل أسابيع قليلة. توضيحات إضافية، وحده الدكتور رحموني كان يعرف عمّا يتكلم. ويبقى أنه فتح عينيّ على أشياء كثيرة كنت أجهلها. سأتذكّر تلك المحادثة التي لم تنته إلى اتفاق أيضا، حيث سألته : «ألا نمرض أيضا لكي نجذب إلينا نظرة أكثر إنسانية من تلك التي عادة ما تلقى علينا في عزلة وبؤس هذا العالم الخالي من الرحمة والشفقة ؟»

من جديد تردّد، فكّر ثمّ هزّ رأسه إيجابا مرتين أو ثلاث مرات :

«بكل تأكيد. ولكنها ليست إلا المرحلة الأولى، المستوى الأول، إن صحّ التعبير. وبعد ذلك، نجد من نواجهه، أو كيف.

– بمساعدتك.

– بها أو بدونها».

أحسست بشعور من الثقة اللاعقلانية يغمرني بلا ضوضاء. لم أندَم على أني تركت الدكتور رحموني يوضّح فلسفته. لقد أفرط قليلا في الشرح وجرّني معه في دروب ربما لم أكن أرغب المغامرة فيها إن تُرك لي الاختيار. بالضبط، كان الأمر مهما لأجل هذا. نعتقد أننا نعرف ناسنا ؛ اكتشفت صديقي في ذلك اليوم. ذلك الوجه الواثق، الدائم الذي احتفَظ به خلال كامل محادثتنا ! في الستين من العمر، وربما أزيد قليلا، ولا تجعُّد واحد على الوجه. هكذا سيبقى في ذاكرتي، ولا أريد بأي حال من الأحوال أن تتبدّد هذه الرؤية أو تتشوّه.

****

إنّي أدرك جيّدا الأسباب التي منعتني إلى حدّ هذه الساعة الحاضرة من الاعتراف بالحقيقة إلى نفسي، وتسجيلها بحروف بارزة في ضميري. مع أنّها قفزَت إلى عينيّ بمجرد تجوالي الأول في هذا الحيّ المنعزل، من النظرة الأولى التي ألقيتها من فوق الجدار الواقي لتلك الهاوية الملعونة التي لم أتمكن، منذ تلك اللحظة، من طرد صورتها من خيالي –الصورة الفظيعة، المنفِّرة. وخارج هذا التبرير المقبول، مع أنه ثانوي، كنت سأهين أصدقائي ومدينتهم، بل وسأخون الوفاء القاعدي للضيافة، بالكشف، ولو بداخل أعماقي فقط، عن مثل هذه الحقيقة البائسة، والتي كانت ستصطدم بداخلي بعيب الدَين الأساسي، كما كانت ستصدم أكثر من عقلي : الجلسات السرية لكياني. إن الوحوش التي رأيتها تتحرك في الداخل كانت...، وكنت أعرف

ذلك، من طينة البشر. مَن هم هؤلاء الجرفيريون الذين وجدوا أنفسهم مرميين في تلك الحفرة – ولماذا تجاهل الآخرون مثل هذا الأمر ؟ أتذكّر جَماعة بأكملها، كان أعضاؤها يتجمّعون حول شيء يبدو أنّ الأعضاء يتخاصمون حوله، رافعين الهمهمات أو الأنّات التي كانت ستكون مثيرة للسخرية لولا أنها في حالة يُرثى لها ؛ همهمات، أنّات، احتمال أن يكونوا من المحكوم عليهم. ولكن لا تُرتكب أية جريمة، ولا أية جنحة في هذا البلد. زيادةً على أنّ ملامحَ الجميع كان يظهر عليها أثر العمر (دون أن يكونوا بالضرورة شيوخا). بعد ذلك، ابتعدوا عن بعضهم البعض ولم يتبادلوا أيّة كلمة أو إشارة من أي نوع. يعني أنّ عدد الذين كانوا يفعلون ذلك لم يكن كبيرا، أو ربما كنت أنا الذي أتوهّم أنهم يفعلون كذلك. فباشر كل واحد منهم إلى التشبّث بصخرته، وكذلك الخمسة أو الأربعة الذين انتصبوا كما لو أنهم أرادوا النظر حولهم، أو إلى البعيد أو إلى الأعلى، فاستعادوا وضعيتهم على أربعة أقدام، وكما جيرانهم، التصقوا بصخورهم بلا أدنى صعوبة. مع أنّي لم أتمكن من عدّهم، برغم حركاتهم الثقيلة والمتشنّجة. ولم يتحرك بعد ذلك أحد منهم، لا شيء يُذكّر بالحياة عندهم بأي شكل من الأشكال، أو أنّ الأمر يتعلق ببشر. تبَخّر التشبيهُ بالبشر الذي قدّموه خلال فترة وجيزة واستعادوا وضعيتهم التي لم تكن وضعية بهائم وإنما أسوأ من زاوية نظر معيّنة.

****

لا ينبغي أنْ أنسى : سأتعشى في المدينة هذا المساء. اقترَب الليل، يجب أن آخذ حماما أولا، ثمّ أغيّر ملابسي. يا لها من غريبة، الفكرة التي انبثقت في رأسي. يا لها من فكرة، يا لها من فكرة ! سأذهب فورا للبحث عن خادم الفندق، سأرى كيف يصير الأمرُ بعد ذلك. ربما ينبثق منه شيء. تُلبّى الخدمات بسرعة هنا، إنّي أسمَع دقات خفيفة على الباب، أقول أدخل. إنّه هو، أتعرّف عليه دون أن أتذكّر أنني ركّزت عليه عينيّ ولو مرة واحدة، مثلما يحدث عادة مع هؤلاء الناس. لم يتغيّر منذ ستة أشهر، أي منذ وجودي في هذا الفندق، في هذا البلد. ثابت لا يتغير ؟ توقف وسط الصالون في وضعية احترام. واصلت ارتداء ملابسي، مديرا له ظهري. ولكنني تحركت بحيث أراه خلسة في حقل المرآة. عندئذ قصصت له ما رأيته هناك، على شاطئ البحر. انطلقت في الحكي بالكيفية التي نتحدّث فيها عن المطر والجوّ الجميل لشخص مأجور كي يسمع ثرثرتنا. نعم ثرثرتنا ؛ شيئا فشيئا تمدّدت تقاسيم وجهه المتعبة وتقلّصت بظاهرة غامضة، رغم أنها كانت مستعدة لاستعمال أطول. ألقَى عليّ نظرات، غفرانك يا ربّ، خوف أو حقد، لم أتمكن من تحديدها، فأربكتني رغما عني. كدت أندم على تصرّفي هذا.

ماذا تصوّرت ؟ في سذاجتي لم أتوقع ردود فعل تصدر منه إلا مؤدبة وغير واضحة. وماذا بعد ؟ أخيرا يُمكنني الاعتزازُ بأنّني حققتُ نجاحا بإرباك هذا الخادم. يوجد شخصٌ على الأقل ارتبك بمجرّد ذكر ذلك الشيء. لم تخدعني غريزتي، كان كافيا عليّ أن أتكلم، ولم تتأخر النتيجة عن الظهور. حسنا فعلْت إذ

قمت بالتجربة. قمت بالضبط بما ينبغي أنْ أقوم به. أشعر أنني في الاتجاه الصحيح. ولكن الخادم لم يتأخّر عن تسوية تقاسيمه مثلما نُسوّي ملابسَنا بعد سقوط غير مقصود، فتماسك الفتى. كنت أعتقد أن الأمر يتعلق بسوء تقدير منّي لو لم أكن متأكدا بأنه كان دوما تحت بصري. من جديد، تمدّدَت على وجهه تلك الابتسامة التجارية التي تعوّد على توزيعها، ولا تشكل تلك الابتسامة وكُسوته الرسمية إلا بدلة واحدة تلتصق بجلده.

«يبدو لي أنّ سيّدي يحب المزحة، فأسمح لنفسي بأن أشير له إن كان مثل هذا... الـ... المكان موجودا فلا يبقى أحد دون جهله. (يريد القول، دون علمه، بكل تأكيد، يقع ككثير غيره في هذا الخطأ، بحكم الرغبة في إتقان الكلام. يمكن أن تخونه اللغة أيضا، في هذه الحالة ستكون زلة لسان، أشبه بتغيير التعبير الذي لاحظته عنده.) إلا إذا كان سيّدي مولعا بالغرائب..».

أفرَط في الحديث، وبالكنايات، زيادة على ميله إلى التعليل، مواصلا بهدوء كذبه بتوزيع ابتسامة التواطؤ المزيف بوقاحة ظاهرة لتكون متجانسة مع تذلّله ومجاملته. أطال هذه الكوميدية وأمطرني من مكانه بنظرات في الظهر حيث تحمل ومضات شريرة. انزعجت، فهيّجتني رغبة مواجهته وإسماعه طريقة تفكيري. ولكنه يجهل أنني أراقبه، فلا أريد كشف خطّتي.

سكت بدوره، متفرّجا، غير مدرك في الظاهر، هو، ماذا أريد منه، وأنا أتساءل كم من الوقت سيمكث هكذا واقفا مشدوها مثلما هو عليه، يد بداخل يد أخرى في نهاية ذراعيه

المعلقتين، النظرة فارغة. إنّ جمجمته الصلعاء من القمة إلى القاعدة تسقط خفية على عينيه، وتتلقى شخصيته بلباسه الأنيق، وربطة العنق الملوّنة، المحلق بعناية كبيرة، مع أنّ اللحية تتفحّم تحت الجلد، دمغة سلحفية مدعمة إلى غاية العبث بذيل طير القندس الذي يتدلى تحته.

«**طرطاروكا** ! بهيمة التتار الجهنمية ! هكذا لعنته بداخلي. ستكون في مكانك هناك، وستزيّن المكان جيدا، أقسم على ذلك ! »

وكي أتخلّص منه، طلبت منه بعض المعلومات العامة وحرّرته، فشعرت بالارتياح. في نهاية المطاف، كنت عاجزا عن القول إن كان هو نفسه خادم الفندق الذي رأيته بالأمس أم هو شخص آخر. أعتقد أنني تعرّفت عليه، ولكن هؤلاء الخدم يتشابهون كثيرا.

عند خروجي، التقيت في الرواق بمدير الفندق وحييته. ردّ عليّ بحركة عابرة، كان منشغلا بالركض بسرعة محمومة على خلاف عاداته وخطيرة على رجل في مثل بدانته. هذا تصرف غريب من قبل شخص لا تخونه أبدا لباقته الحضرية، زيادة على أنه مُتعوّد عند لقاءاتنا السابقة على إمطاري بشهادات الاعتراف والاحترام والمجاملات الأخرى. افترضْت أنّ لديه مشاكل. سَوف لن أتوقف عند هذه الترهّات، ضيوفي ينتظرونني ولا شيء يزعجني كوصولي متأخرا في مثل هذه المناسبات.

لقد أحسنت بالإسراع، أعطى أصدقائي إشارة المرور إلى الطاولة تقريبا بمجرّد دخولي، كنت آخر من وصل. لم يتركوا لي إلا وَقتَ إفراغ كأسي. حينما التحقت بمكاني، انتبهت إلى فخامة الاحتفال الذي سيلف عشاءنا، والبذخ الذي أحطنا به. إنّ أناقة الأواني والكؤوس والأزهار والشمعدانات بأنواعها وألوانها تنشر بريق ضوء لا نرى من أي منبع ينبعث. تبًّا عليّ إنْ توقعت هذا. إنّه شيء مغاير تماما عن عشاء حميمي في دار صديق مثلما كنت أنتظر. كنّا حوالي عشرين شَخصا حول الطاولة. إنّه جوّ مرح، ملفوف بالبذخ والعدد، وقد خفّفته قليلا وبكثير من السعادة هيئة ضيوفنا المتأثرة، وبالأخص دوديرك الثخين وزوجته. إذا كان لا يفوتني الآن أيّ تفصيل من هذه التحضيرات، يحدث بالمقابل أن لا أميّز جيدا معنى وقصد الاحتفال نفسه. صحيح أنّها حفلة دعاني إليها أصدقائي، وجمعَت كثيرا من الندماء. ولكن معرفة هذا لا يجيب بأي حال على السؤال الذي طرحته على نفسي، أو إجابة متملّصة إلى حدّ لا أظن أنّ هذا المكان هو حقا ذلك الذي ينبغي أن أكون فيه. هل أحسّ به دوديرك وزوجته ؟ إنهما يجلسان جنبا إلى جنب، اليد في اليد، فأخبراني أنهما يحتفلان بعيد ميلاد زواجهما، وهما يقولان ذلك، يتبادلان النظرات دون القدرة على كتمان ضحكة متواطئة. أما صاحبة البيت، البشوشة، المشعة جمالا، فكانت تتكئ بكتفها على صديقها وترفع باتجاهه نظرات عشق ذابلة. تسلّت مرحة بالأثر الذي تركه هذا الخبر عليّ، وأنا على وشك التفكير بأنهم احتفظوا لي بالأولوية – والمفاجأة. انتصبْت،

الكأس في اليد، فعبّرت لهم عن تهاني الصادقة بتشدّق ذلك الذي تأخّر في الفهم، في نهاية المطاف، وكي أتخلّص من الورطة، وجدت أنه من الأفضل أنْ أعترف لهم بكامل الغرابة التي تكتسيها عندي، أنا الأجنبي، مثل هذه الاحتفالات. ولم أعتمد فقط على شيطان التبريرات الواهية، بل أبرزت إلى السطح عزوبتي : هكذا قدّمت نفسي من اللقاء الأول مع أصدقائي، أثبتَت تجربتي أنّه مَدخل مفيد وملائم. أصبَح الأمرُ تقريبا حقيقة فيما يخصّني، سأشرح ذلك في وضع مناسب أكثر. طمأنوني، انتهى سوء الفهم، عدت إلى الجلوس.

انتهى العشاء في جوّ مرح، فانتقلنا، ضيوف ومضيفون، إلى صالون كان هو أيضا تحفة في حداثته الصارمة بفضل انسجام ورفاهية تنظيمه. كان الجميع في تهيئة جيّدة ؛ للأسف الشديد، بمجرد توزيع القهوة والكحول، بادرت سيّدة المكان إلى التذكير بحيرتي، والتي نسبتها مثلما قالت إلى جهلي بعاداتهم وتقاليدهم، مع أنّها لا تعتقد أن الأمر يعود فقط إلى هذا. ثمّ صرّحت وهي تهدّدني بأصبع ودود بأنها لاحظت استمرار حيرتي طوال جلسة العشاء، فلا يمكن استمرار هذا الوضع، فأمرتني الآن أمام الحضور بالبوح بالسبب أو الأسباب الحقيقية. أربكتني هذه المواجهة غير المتوقعة، فقدت رباطة جأشي. كان من العدل أنْ لا تعكّر هذه السهرة المكتملة نغمةٌ ناشزة. وينبغي الاعتراف بأنّ وضعي كأجنبي وكأعزب، الممزوج بتهانيّ الصادقة، لم ينفعني في شيء، ولم يقدّم لي حماية من أي نوع، مثلما حاولت إقناع نفسي قبل قليل. ولكن وضعَ هذا

الأمر على البساط الآن، ألا يُعتبر قساوة ؟ وقد تدخّل الزوج قائلا بأريحية : «ألا ترين أنّك تزيدين من ضجره يا عزيزتي ؛ من فضلك، قليل من الشفقة على صديقنا».

أكيد أنّكم تعرفون تصرّف بعض النساء. لا يوجَد أفضَل من مثل هذه التوسّلات لتلسَعهن بقوة وتجعلهنّ يتعنّتن في مطالبهن. واصلَت مُضطهدتي الضغط بأسئلتها، دون أن تتوقف عن الابتسام، وتتخلى عن نبرتها المتملّقة. لقد سبق لي أنْ لاحظتُ الحيوية الخفية التي تلوّن بشرتها وتزيد من بريق عينيها المتعبتَين، حيوية زادت الأطباق والمشروبات الرقيقة التي تناولناها بوفرة، والطابع الخارق للاجتماع من حدّتها، فشكّلت هيجانا ضاعف من جاذبية جمالها، الذي أصفه بالساحر، إلى فتنتها الطبيعية، لتكشف في المرأة التي أعرفها عن تجسيد الجمال والشباب والإشعاع. أتوقع هزيمتي قريبا، ستهدّ آخر قلاع المقاومة المصقولة التي لا أزال أتخَندق بها. فانطلقتُ بشهامة لاحتلال الخطوط الأمامية، مُعتبرا هكذا (يا لها من حماقة !) أنّ اكتشافي أمر هيّن، فأسهَبْت في وصف الحفرة وسكانها، مع إنّي أعلنت بأنّ الأمر بسيط ولا يستحق اهتماما كبيرا. تملّكني نوعٌ من المزاح المحموم لم أدرك فحواه، وقد نسيت مغامرتي القريبة مع خادم الفندق، كما نسيت الوعد القاطع الذي أطلقته على نفسي بعد ذلك بتجنّب كل إشارة أو تلميح إلى هذه الإهانة إلى العقل السليم، فرُحت أحكي وأحكي. تخلى كثير من الأشخاص عن أحاديثهم الجانبية التي أبعدَتهم عنا للحظات ليلتَحقوا بجماعتنا. واصلت الحكي وأنا ألاحظ

الاهتمام الذي أثيره، فأزيد حماسا وفصاحة إنْ أمكن، دون أن يخفت صوت أناي الثاني وهو يحذّرني في كل لحظة بصفائه المعهود : «إنك تفقد هنا فرصة ذهبية للصمت ؛ من الأفضل لك أنْ تمسك لسانك. لا ينبغي. لا ينبغي». بدون جدوى، لقد فات الأوان. إنه أقوى منّي. لم أنتبه إلى صرامة الوجوه، ولكن في لحظة ما أربكتني النظرات فتوقفت وسط جملة.

عندئذٍ، خيّم صمت لا يُحتَمل، ولا أحد في المحفل تجرّأ على كسره، فترجمَت النظرات، جميع النظرات، ازدراءً أكيداً للالتقاء، فانفتحَت بتحفظ مرعوب، في الداخل كما في الخارج، على فضاء شاسع غريب. «رويت لهُم حلما، حلم لم أعشه أنا شخصيا..». فكرة كانت تقترب، تعبُر ذهني في تلك اللحظة. «ومَن رأى الحلمَ إذا ؟» فتُخيّم الفكرة في رأسي، أقل من جيّدة، أقل من صغيرة، أقل من صديقة : «حلم رأوه هم، وحكيته أنتَ ! « إنّها الحقيقة التي تركتني وجها لوجه مع نفسي، وحيدا، مذهولا، وأكثر يأسا. عرّاني الضَوء الساطع، أعماني **ألم يتلق هذا الضوء اللعين مُجزّءًا، ألم يصيّر لحمه إلى رماد، ألم يحوّل عينيه، ألم يبعد عينيه عنه مثلما يفعل أمام جميع الأشياء الصادرة عنه** وهي اللحظة التي اختارتها سيّدة وزوجها، ناس في عمر محترم، لمغادرة الحفل. هل يُمكن بكل صدق إقامة علاقة بين قصتي وهذا الذهاب، يطرح السؤال نفسه، ولكن كيف الإجابة عنه ؟ لمْ يتفَوّه الزوجُ العجوز بملاحظة، ولا قام بإشارة، ولا رسم تعبيرا من شأنه أن يظهر لنا كدلالات ارتياب، أو إنكار. كما لم نلاحظ أدنى

عجرفة في تصلبهما، ما حدث كان عكس هذا تماما، شدّ الزوج والمرأة يدي بلطف، بل لا أتردّد في الزعم أنّ عيونهما، المتلألئة والمنطفئة في آن، ذهبت إلى حدّ طمأنتي بعطفها. بل إلى حدّ طمأنتي بالعطف المزدوج من الزوج والزوجة معا، وبلا أدنى خطأ ممكن، فيما كان الآخرون يتابعونهما، مسوّين مواقفهم مع موقفهما الودود.

غيّرنا موضوعَ المحادثة مع الضيوف الذين بقوا، فبدأنا نتحدّث فجأة عن الوفرة، وفي ابتهاج متدحرج مرّت موضوعات متنوعة. وشربنا أيضا، وعلى حسب ما أدركت، إننا شربنا كثيرا – كما دخّنا كثيرا أيضا. ومن هذه الأحاديث المتشعبة، التقطت من الإشارات والرسائل كما يحدث مع سحابة رنّانة. إنه دخان أشبه بذلك الذي تحدثه سجائرنا، لم تنفصل أية جملة ولم تصبني ولم تعنِ لي الشيء الكثير : ومع ذلك أحتفظ بدوري. إنها ضوضاء مرهِقة في نهاية المطاف، والأضواء، تلك الأضواء التي فاجأني توقّدها عند وصولي، مرهقة، وتقترب هي الأخرى بكثافة قوية من ذروة الإبهار. ومع ذلك، بدا كما لو أنها تنطفئ، لأنها احترقت طويلا، وتتفتّت علينا في غبار مرتجف. وبدا وجهُ مُضيفتنا، رغم استمرار لمعانه بذلك الجمال السماوي، وقد أدركه جفاف الجوّ، يتغطى هو أيضا بذلك الرماد الشاحب. ومثلما تلّقى لعنة الضوء مُجزّءًا... **ومثلما دُعي إلى هذا الحفل، وإلى حفل آخر، ليس هذا المساء، ولا هذه الليلة، سيكون مساءً آخر، ليلة أخرى، وسوف لن يسقط وسطها مصادفة.**

كان جديدا ذلك الخادم الذي استجاب لدقّات جرسي هذا الصباح. سَلّمتُ له رسائل أردت إيصالها إلى البريد بلا أدنى تأخّر، فسألته لقول شيء ما، ربّما لأسمع رنّة صوته : «ألا يشتغل زميلك هذا اليوم ؟

– ليس لي زميل في الخدمة، سيّدي. وُظِّفت بالأمس فقط. ولا أعرف من كان في هذا المكان قبلي».

إنّ الرجل الذي لا تزال تقاسيمه تعكس «ربيع الحياة» يملك وجها ظريفا، ولكن تبًّا له، برغم مظهره المتصنّع، فإنّه يعتني بتلفظ الكلمات بنبرة حيادية، أي نهائية. زيادة على أنّه قرّر بنفسه أنّ الحوار بيننا قد انتهى، فانسحب. بقيتُ وَحدي، فلاحظت أنّ عمق مكر بداخلي يتسلى ويسخط في آن واحد : «لقد وظّفوا رجلا آليا هذه المرّة». وبعد ذلك فكّرت أنه ليس من حقي التدخل في شؤون الفندق، وأنّ لدي من الهموم ما تكفيني وزيادة. يجب عليّ مثلا الذهاب فورا لرؤية دوديرك، صديقي في الأعمال، ولن يهنأ لي بال قبل ذلك. أرّقتني منذَ استيقاظي فكرة ضرورة تقديمي شروح له ولم تغادرني طيلة هذه الصبيحة برغم التبريرات التسويفية التي أمليتها على نفسها، **ما هي الشروح التي سأقدّمها له ؟ ولماذا ؟ وهل هو بحاجة إلى**

شروح ؟ وإن كنت أنا وحدي، أنا خاصة، بحاجة إليها ؟ ولكن عن أية شروح أتكلّم ؟ لم أعد أحتمل، فاتجهت، كما لو أنّه أمر، ليس نحو مسكنه، وإنما نحو مكتبه، فكنت أفضّل التحدّث معه رأسا لرأس مع أنّ هذه الطريقة أيضا... لا أشكّ أنه سيُخبر السيّدة دوديرك بزيارتي. إنّ هذه المرأة الفاتنة امرأة متميّزة، فلم أتألّم في حياتي من نوبات الضجر مماثلة بتلك التي تنتابني وأنا بحضورها. إنّ مجرّد التفكير فقط، مثلما هو حالي الآن، يحدث مغصا في معدّتي وأحس بالاختناق. ولكن ليس هذا هو الشيء المضجر : الآن وأنا في الطريق وأفكّر ببرودة أعصاب، أجد أنه لا يوجد أيّ مبرّر لمسعاي ؛ يجب الاعتراف بهذا، لا يوجد أيّ مبرّر جدّي. ربّما فقط لتقديم مجاملات له ولزوجته عن السهرة التي دعاني إليها. ولكنّني أرسلْت باقة أزهار. حينما يحدث ذلك ! سوف لن أضطرب من أجل حبّة خردل، إنّي وجدتها : المجاملات، وسأستخدمها، ولن أترك نفسي تصدّها وساوس واهية، أو لأقل خجل مزيّف.

إنّ نيّة رؤيته التي أجّجت كياني وألهبته جاءتني في مكتبه بغتة وفرضت نفسها عليّ، النية الحقيقية والوحيدة، في كامل سطوعها، فأمطرته بتلك المجاملات التي اجتررتها خلال مسافة الطريق، بالجملة ودون مقدّمات. استَخرَجْت منها امتيازا : لقد خلقَت جوّا من المودّة ووضعَت محادثتنا تحت ريح مواتية، وها نحن نتحدّث عن أشياء وأخرى بحرية كانت ستبدو خرافة قبل أيام قليلة. كان حديثنا يشدّ اللجام على الرقبة، فتجاوز إطار الأعمال التي كنا نشتغل فيها معا، وانزلق نحو حقول خاصة

أكثر، فأحسست باقتراب اللحظة التي سأباشر فيها موضوعي، الموضوع الكبير الذي انتقلت من أجله في حقيقة الأمر. وثقت إذا من تفهم صديقي وتعاطفه معي، فقلت له دون اتخاذ احتياطات أو تعرجات : «باستطاعتك الآن أن تخبرني عن بعض النقاط، بل عن نقاط كثيرة».

ذكّرتُه بالقصّة التي رويتها في بيته أول أمس بشأن تلك الحفرة اللعينة، وأسرعت إلى الإضافة : «لا تمنح أيّ معنى... متميّز لفضولي. ليست مبادرتي إلا رغبة صريحة في التعلّم. فكّرت بأنك أفضَل من يُشعل قنديلي».

استرْسَلتُ في عرض تبريراتي، ولكنّي أبقيت بصري عمدا بعيدا عن الرجل الذي يجلس مقابلا لي. انتبَهت إلى ذلك بعد لحظات، كان موقفي مثيرا للسخرية، فتفرّست سحنته دفعة واحدة. تأملت تقاسيمه دون توقف، كانت جميعها مستقيمة، الجبهة، الأنف، الذقن، الجمجمة المزيّنة بشعر أشقر، يتخلله اللون الرمادي الخفيف، تقاسيم تعيد إنتاج شخص عادٍ من جرفير، ولكنّي ترقّبت لديه نوعا من الصلابة. فتغيّر وجههُ إلى حدّ أضحى لا يُعرَف. انغلق. لم يَعد نفس الرجل الذي كنت أتحدّث معه بأريحية. إنّ الغلطة التي لم تكن ترضيني أبدا هي أنْ أحزن صديقي، أنْ أعذّبه. أو أجرحه. ولكن حسب جميع التقديرات، فإنّ الضرّ قد حدث. كيف كنت سأتصَرّف لأتجنّب الوقوع في مثل هذه الورطة ؟ التقَت نظراتنا صُدفة، ومن خلال هذا الاصطدام الذي لم يدم إلا جزءًا من ثانية وُلد حوار غريب

بلا كلمات، سبَر فيه كل واحد منا أغوارَ صاحبه، بعمق، ببُعد، ولأطول مدّة ممكنة والحفاظ على احترام النفس. ثمّ وبحركة واحدة، وجّهنا عنايتنا إلى أمكنة أخرى، فسقط الصمت، قاسيا، عصيّ الاحتمال. لمت نفسي تقريبا على الخوض في الموضوع. هل أحدثت له ضررا أكثر مما يظهر، ترقبته خلسة، لم يكن هذا قصدي. أؤكّد على هذا بكامل عزّة نفسي وسأدافع عنه أمام السماء، لم يكن هذا قصدي، وهذا بالسبب الوجيه أنني لم أكن أشك ولو مثقال ذرة أنّ قصتي يمكنها أن تحدث ضررا ولو ضئيلا. حاولت المزاح قائلا : «على كل حال، ليس مهما ما رأيت أو ما لم أر، إن مدينتكم رائعة، وهذا يكفيني وزيادة. إن العيش فيها يمنحني شعورا بأنّ أمنية قديمة، أو حلما، قد تحقّق. لم أشعر براحة أفضل من تلك التي أشعر بها في جرفير. أما الباقي... فغير مهم !»

ابتسم لي دوديرك كما لو أنه يقدّم لي إجابة، ابتسامة يلفها ستار من الندم، بلَ من الحزن. قلت مع نفسي أنّ هذا أفضل من لا شيء، ولكني أدركت بكيفية شبه غامضة أنّ وراء هذه الجملة تتربّص أخرى أكثر قسوة ورعبا. فجأة، أحسسْت بعجز عن التمييز إنْ كان ما يرتسم على وجهه ابتسامة أم تكشيرة فزع. راقبته لحظة، فلم يساعدني ذلك في شيء. ابتسامة تارة، وتكشيرة رعب تارة أخرى، فأصطدم مرّة بالابتسامة، ومرّة أخرى بواجهة الهلع المذعور، ليس بالتتالي : بل كتلة واحدة، ولا أعرف ماذا أقول، ولا ماذا ينبغي الاحتفاظ به، ماذا أنتظر من هذا الازدواج أو هذا التحوّل، إن كان الشيء هو في آن واحد

ضده قبل حتى أن ننتهي من إدراكه جيدا. لنفترض أنّه يدافع عن نفسه بهذه الطريقة، يحمي نفسه من خطر، ولكن أي خطر –أو أنّ هذا يساعده على الإيحاء، ولكن ماذا ؟ أو أنه يحذّرنا – ولكن ضد ماذا : الحقيقة ؟ الحقيقة التي بدا لي أني لمستها بالأصبع قبل لحظات، ولكن فات الأوان، لقد تبخّرت الآن ؟ هذه الحقيقة التي، وللأسف الشديد، حضّرت نفسي لمواجهتها، وأدفع الآن الثمن. إني أشفق. أشفق من هذا الرجل، أشفق على هذا الرجل. مع كل الاحترام الذي أكنّه له، فإني أكتشف في دوديرك شخصا بحاجة إلى عزاء. في هذه اللحظة، بدا لي كما لو أنَه كان جالسا على الجمر دون أيّة مقدرة على فتح الفم والصراخ. ما العمل في مثل هذا الوضع سوى الانسحاب وتركه مع نفسه. أخيرا ذهبت، أجرّ خيبتي مثلما جئت، ولكني ثريّ بملاحظات ثمينة للتأمل.

عدت إلى هناك بعد هذه المحادثة. ذهبت راكضا، لم تكن أية قوة قادرة على إيقافي. مثلما يحدث لي غالبا وأنا أعبر المدينة، كنت منجذبا بنور السكينة الخالدة التي أنا ذاهب إليها. كانت تنبعث على طول الشوارع نفحات تلك السعادة التي تزيدها الوفرة نعمة. هل يجهل السكان كلّ شيء عن وجود تلك الحفرة المرعبة عندهم ؟ هذا لا يقبله العقل، لا أتصوّره، حينما أستطيع أنا الأجنبي أنْ أصادفها في تجوالي. إنّ الفرضية الوحيدة التي تشكّلت في ذهني : يعرفون، ويجدون ذلك طبيعيا. طبيعي : ترهّات ! بدأت أهذي. ولكن هذا الصمت، بلا أية فجوة، الذي لاحظته في كل مكان. لا أحد يتكلم، ولا أحد يستخبر. هذا

الصمت، هذا الصمت : شبيه في هذا بصمت صديقي دوديرِك، يُحدِث في نفسي أثرَ صراخ جنوني.

الظاهر أنّ أعصابي متشنجة اليوم. أهيج أكثر من العادي : ماذا حدث لي، ماذا أصابني ؟ إنّ الذي أصابني، هؤلاء الناس العارفون بظاهرة في مثل هذه الخطورة من جهة، وهذا الصمت الرهيب، من جهة أخرى. ينبغي الاعتراف بأنه وضع غريب شيئا ما، ليس لديّ مكان لمثله في إطار الأفكار التي تعوّدت عليها، ولا خانة أخصّصها له.

انحنَيتُ فوقَ الحفرة كما لو أنّ بمقدورها أنْ تهمس لي بعض الاعترافات حول الموضوع، هكذا بقيت مترقبا، منتظرا، مستعدا لصبر طويل. لم يكن الوقت طويلا ؛ بعد قليل استيقظت العَصَويّات النحيلة، تلك الكائنات القابعة في العمق، وكي لا تتغيّر تبقى لاصقة بالصخور بأقدامها المعوجة برغم الصعوبات التي تجدها للقيام بتلك الحركات القليلة. ومع أنّها تتشبّث بكل أجسادها. أكيد أنّ سببا ما يفسّر هذا الهرج والمرج غير المفيد. راقبتها لمدة طويلة. للأسف الشديد، لم يكن بإمكاني معرفة هذا السبب. كان سلوكها يمتنع بغرابة عن أيّة محاولة لفكّه. ولم تسمح لي أيّة إشارة بإقامة دليل واحد إنْ كانت تعرف يقينا ما يحدث في عالمنا العلوي هذا –كدت أقول عالم الأحياء ؛ لا شيء يوحي بأنها تشك في وجوده، إلا إذا... إلا إذا كانت تعلم، واتّخذت قرارا أبديا بالبقاء منفصلة عنه، فلا تكترث به. لا يبدو أنّ شيئا يثير اهتمامها، إنْ كان من اللائق

أنْ نتحدّث عن مصلحة ما، ربّما باستثناء الصخور التي تتشبّث بها، أو الأسماك والأنقاض غير الواضحة التي ترميها الأمواج باتجاهها. تنبعث من العمق رائحة غامضة لمدفن العظام، أتصوّر جيدا لماذا.

سطوع عصيّ الاحتمال، ديكور ينتمي في الآن نفسه إلى صالون صغير وقاعة استقبال فندق فخم، والمخرج المستعجل الذي يصرخ ويشترط : «لورا، اتركي نفسك تسقطين على المقعد، هنا، أمام منضدة الزينة !» يشير بالأصبع إلى المكان وإلى لورا، وكانت لورا بفستان النوم تنفِّذ الأمر للمرّة العاشرة، ودون أنْ يلتفت إلى الخادمة، يصرخ باتجاهها : «أخرجي من هنا» وتركض الخادمة المغناج المكلّفة بأمتعة سيّدتها دون أنْ تنظر خلفها، ومن جديد يصرخ المخرج : «لورا ! لورا !»، يستعجل المخرجُ الممثلة : «ضعي مرفقَيك على المنضدة، أدخلي أصابعك جيدا في شعرك !»، يتضرّع المخرج : «ابقَي لحظة دون حراك»، والممثلة الوديعة التي تطيع، ومن جديد المخرج : «ارفعي رأسك» وترفع رأسها، تدور الكاميرات، ودائما المخرج : «حدّثي مرآتك» وتتأمل المرآة بثبات دون أن تنطق بكلمة فيما يعود صوت المخرج نحوها : «تكلّمي مع مرآتك !» وبعد أنْ شدّت انتباه جميع أعضاء الفرقة، انطلقت تتلو المقطع الملائم للمشهد : «أنتِ مشهورة، مدلّلة، جميلة، غنية وجميع طلباتك عند قدميك. من أجل نظرة واحدة من نظراتك، الرجال مستعدون لـ... مشهورة، مدلّلة، جميلة، غنية... عيّنوا لي هذا ! عيّنوا لي هذا !»، ويتغيّر صوتها

بغتة، ليصبح أبحّ، شنيعا، وهي الممثلة التي تنحني نحو المرآة، تستعيد نبرتها الطبيعية، نبرة مشتركة، لتواصل : «ترهّات ! لا شيء في الخلف، ولا شيء في الأمام ! سوى الفراغ ! مَن عُمرُها سَبعةٌ وثلاثون سنة ؟ أنت ؟ إذًا كم عُمري أنا ؟ من أنا ؟ لنَنظر إنْ كنّا نستطيع أن نذَوب في واحدة، أن لا نشكل إلا واحدة» وتقرّب وجهها من الوجه الذي تعكسه المرآة : «ممنوع !»، وتُخرج لسانها ساخرة بصورتها، تكشّر في تعابير هازئة، مُحدثة سلسلة من القهقهات داخل القاعة، ثمّ توقف تهريجها وتتساءل جادة : «ماذا حدث، هل أسأت التمثيل ؟» ويتغطى وجهها الرائع بقناع صارم. تتنهّد وتقول بحزم : «يبدأ يوم جديد. سأكون فيرا». وتضيف بعد لحظة صمت : «دائما نفس الشيء». في تلك اللحظة، يدخل خادم طويل القامة، خادم جميل وملغز ؛ يحمل صينية فوقها قنينة ويسكي وكأس ومثلجات وصودا. كان على الممثلة أنْ تقف عند رؤيته، وبإيعاز من إشارة المخرج لتقول : «أأنت أطرَش ؟ تنام أنتَ فيما أنا هنا...

– سيّدتي.

– لا أريد شرحا من فضلك، أنتَ هنا لتأتي لي بمشروباتي، هذا كل ما أطلبه منك.

– كان عليّ تحضير المثلجات.

– لماذا تنظر إليّ هكذا ؟ هل أنت... تعيس ؟ «يا له من وضع محزن !» تتقدّم نحوه، في مشي مثير : «ماذا تريدني

أن أفعل بك وبحبّك ؟ كم مرّة قلت لك أنك تزعجني. لقد تركتَ منصب دبلوماسي من أجل منصب خادم ذليل لأنّني نمت معك ذات ليلة... – سيّدتي»، قال ولكنها مسكته من قفا سترته : «سوف لن أهنأ إذا اضطررت إلى جرّ خلفي جميع الأشخاص..».
و في تلك اللحظة، انفكّت أزرار فستانها النومي، فانطلقت في ضحكة صاخبة : «انظُر ! يُمكنك أنْ تنظر ! أكثر الممثلات جمالا وشُهرة، أكثرهن ثراءً ! لماذا لا تنظر ؟ هزّته بفظاظة : «أقول لك انظُر ! – فيرا» قال الخادم، فسقطت الصينية من يديه في فرقعة زجاج يتفتّت (وكذا اهتزازات المقاعد تحت قهقهات المتفرجين)، فانحنى الولهان المسكين للمّ الحطام، وهي تقول : «جان المخبول، عُد في الحين لتأتيني بقنينة أخرى ! انتصَب، تفرّسَها. تنبعث منه جاذبية دكناء. وافق بحركة من رأسه، وذهب، فبقيت وحدها، قامَت بدورة داخل الغرفة وهي تغني : «يا أجملَ امرأة في الكون... إنّك عطشانة. سأبقى عطشانة طوال حياتي». توارَكت بحركة خفيفة، تصنّعَت خطوات قليلة من الطانغو، دارت على نفسها. عاد الخادم، حطّ الصينية على طاولة صغيرة، ملأ كأسا وانسحب. مباشرة، أمسكت فيرا الكأس وأفرغت المشروب في جوفها بنفَس واحد. كان المخرج يراقبها كحيوان متوحّش، متأهّب للقفز، ولكنه لمْ يفقز ولمْ يتفوّه بكلمة. «يجب أنْ نواصل ! أعلنت فجأة دون أن تتحرّك. يجب أنْ نواصل كل يوم. أن نواصل إلى النهاية. نواصل دون أن نفكر في شيء. أن ننام إذا استطعنا. أن لا ننام إذا لم نستطع. ولكن من واجبنا أن نكون سعداء ونواصل.

كوني سعيدة. لنكن سعداء، كونوا سعداء، لنكن سعداء». سكتت لحظة ثم أردفت صارخة : «تزعجونني بجملتكم كونوا سعداء ! هذا غير ممكن ؟ تضجروننني بسعادتكم ! أريد أن تتركوني في حالي ! أن تخلوا سبيلي !» سقط رأسها على صدرها، استأنفت بصوت خفيض : «كونوا سعداء بكامل أفراحكم كيفما شئتم، ولكن أتركوني في حالي. إنّ الضوضاء التي تقيمونها، الضوضاء التي تسكرون بها العالم لا تنجح في تغطية الصمت الذي يحيطني، يخنقني. كامل الصمت. ولن يصل أبدا، أبدا»، استراحَت في قعودها، ثمّ تمدّدَت في الأريكة نفسها، وضغطت بحركة ساخطة على أزرار عديدة.

في لمح البصر، ظهرت نساء بمآزر بيضاء، تحمل كل واحدة صُندوقة صغيرة تحت ذراعها واصطفَفن جنبا إلى جنب في انضباط عسكري ودون إطلاق كلمة. انتظرن هنا، متصلّبات، واكتفت فيرا بالقول : «هيّا، إلى العمل»، فأنجزَت الممارسات الصامتات خطوة إلى الأمام في حركة جماعية مُتقنة، ثمّ خطوة ثانية في حركة جماعية أكثر إتقانا، وعند الخطوة الثالثة انقضَضن على فيرا، أمسكت الأولى الرأس، والثانية الوجه، والثالثة اليدين، والرابعة القدمين، فدعَكن ومشَطن وأقلَمن وجفّفن ونتَفن وعطّرن وزوَّقن –ضحكات وقهقهات متكرّرة عند الجمهور – فيما كانت الممثلة تدَندن نفس اللحن. انتهَت حصّةُ التزيين في رهبة خشوع ديني والتزمَت تلك السيّدات الصمتَ وهن يُرجعن أدواتهن ومساحيقهن إلى صندوقاتها. اصطفَفن من جديد قرب الباب في رشاقة متأنقة فيما كانت فيرا تحدّق

في صورتها في المرآة، فسرّحتهن بحركة يد خفيفة. استجابَت المزيّنات لإشارتها وتحرّكن في إيقاع واحد واختفَين الواحدة وراء الأخرى بخطوات موزونة، فجأة بدَت الأماكن الجامدة كما لو أنها لا تهتَز إلا بصخب وقع ذلك المشي الذي بدا هو أيضا كما لو أنّ هدير مشي آخر يغطيه، يزحف باتجاهه، فيتضخّم ليصبح مشي جيش مهدّد، جيش يتقدّم، يسحق كل صخب آخر تحت أعقابه. ودون سبب ظاهر، يتوقّف تدحرج الجرف عند الباب. خيّم الذهول على الديكور الذي صعقه الصمت المباغت. وبعد ذلك عادت فيرا إلى التحرّك من جديد، متناسية الضوضاء السابقة، مهيّأة كما لو أنّها خرجت للتوّ من غفوة مغناطيسية، وقفَت وسقَت لنفسها كأسا، وذرعَت الغرفة ذهابا وإيابا وهي تدندن نفس اللحن. انتهى بها المطاف إلى التوجّه نحو الأريكة نفسها لتَرْمي بجسَدها فوقَها. مالت برأسها إلى الوراء، وهي تغني دائما وتحلم، الكأس على وشك السقوط من يدها المتدلية فوق ذراع الأريكة.

ذهبتُ إلى السينما هذا المساء. ليس من العادة أنْ يذهب شخص إلى السينما مرتين تفصل بينهما سنة كاملة. لم أذهب بنية مشاهدة فيلم محدّد وإنما لأقوم بشيء ما، لأخرج. وفي نهاية المطاف، عدت إلى نفس قاعة العرض. لم يكن يهمّني معرفة إن كانت هي القاعة نفسها، والفيلم نفسه أو آخر، وماذا كان يُعرَض، وفي المحصلة كان نفس الفيلم، لا تزال القاعة نفسها تعرض الفيلم نفسه، الفيلم المشهور، فيرا أو إفري، لم أتمكن من حفظ العنوان. مع أنّي كنت مقتنعا بأنه سُحب

من العرض منذ مدة طويلة. إنّ مشاهدة ثانية لنفس الفيلم لا يحدث إلا لي أنا لأنني لا أتردّد على قاعات السينما، عذرا، إلا بالمصادفة. مع أنّي تردّدت لحظة عند خط المراقبة، ولكن شيئا ما شجعني على المضي قدما : لا أستطيع تحديد معالمه. وتركت نفسي أسجَن داخل هذه القاعة، وسط ظلمة قبو مُغلق، لساعتين كاملتين متتاليتين لمتابعة أحداث أعرفها سلفا. صورة غير دقيقة وسط ازدحام صور، تعبير شخصية المسرحية، رد فعل، ربما التاريخ، كان لديّ الاختيار وسط افتراضات عدّة من بين تلك التي أرغمتني على البقاء، إذا افترضنا أنها وُجدت حقا وأنني تركتها تتملص مني. كنت أفكر في المسألة عند خروجي، فاندهشت من تلك الحركات التي تقودنا إلى فعل ما لم نكن نفعله أبدا بمبادرة شخصية حرّة. بالطبع، لم أجد تفسيرا لهذه المعضلة، وحينما يتقدّم برهان ينمحي مباشرة خلف آخر، أفضل منه ومختلف عنه. على كل حال، كنت سأنسحب من هذا التفكير الشاق مستسلما حتى وإن صادفني في الشارع مشهد جديد هذه المرة وتداخل بين افتراضاتي الشائكة –المعرّضة للبقاء دون جواب– وأنا. لم يكن المشهد فُرجة بأتمّ معنى الكلمة، لا يمكنه أن يكون كذلك ولا أن يُتصَوّر كذلك لأنّ لا شيء يعرّضه إلى نظرة ما في تلك الليلة، وفي مثل تلك الساعة المتأخّرة. مع ذلك كان مشهدا مسليا بالنسبة لي ؛ مشهد مُنح ليّ بلا وعي، وبثبات وكنت الجمهورَ كلّه. كان يصلني صوت الرجل وصوت المرأة، زوجان بلا أدنى شك، وينطلق المشهد عبر الظلمة الشفافة، ليس واضحا

كل الوضوح كما أنه ليس خارقا للعادة، كما لو أنه ينبعث من الغرفة الخلفية الجهنمية مثلما نسمّي مشهد مسرحية –هنا ساحة رائعة مربّعة الشكل ولا أعرف مثيلا لها إلا في مدينة غجرية. (المدينة المقصودة، بديجوفيس، تقيم الحراسة قرب الحدود النمساوية.) قبل كل شيء، تستحق هذه الساحة أن أقول عنها كلمتين : رائعة، نعم كم هي رائعة، بشكلها المربّع، أتذكّر، وأبعادها المهيبة بلا إفراط، مخارجها التي لا تقع إلا في الزوايا، تحت أروقة، خافية عن الأنظار، وقبل كل هذا بذلك التماثل والنبل بفضل تلك الأروقة المقنطرة والأعمدة التي تحيط نفسها بها. بمجرّد أن تطأ قدماك بساطها، ينتابك زهو يثير حواسك ولا تعرف أيّ الأشياء تترك إعجابك ينساق خلفها، أتلك التفاصيل الدقيقة المكتملة أو ذلك الانسجام المهيب للكل ؛ سيدوّخك تتابع الموتيفات المزينة المتماثلة في جميع الأمكنة، تتكرّر بانتشاء، ستقع في جنون وحبّ هذه الروعة العجيبة قبل حتى أن تعدّ جميع جمالياتها. أقع دوما في مثل هذه الحالة الشعورية المذهلة كلما مررت بها، عند المناسبة، وفي حماسي أوجّه خطواتي دوما باتجاه اليسار لألتحق بفندقي، بينما الطريق المناسب هو من اليمين، مسرور لأنني لا أتيه في متاهات غير مكتشفة – ربما غير قابلة للاستكشاف أصلا.

ومع ذلك، فلنعد إلى زوجنا، إلى هذين الشخصين اللذين يحاذيان التخوم الأكثر ظلاما في الساحة التي كانت هي أيضا مضيئة بشح كبير كما لو أنها ستُرجَع إلى الليل وإلى تعدّيات أقدم. ومن ثمّة لم يكن لديّ اختيار آخر غير تخيّل

تقاسيمهما وهيئتهما ؛ كان الزوج، إن كان حقا زوجا، يطلق خطابا من... يا له من زوج في مثل هذه الساعة من الليل وفي هذا المكان، قد يتحوّل إلى شيء ما، إلى شيء ليس من السهل تعريفه بكيفية محدّدة. كان الزوج إذا يناجي نفسه، بصوت مسدود، مجروح، الشيء الذي بدأ يظهر منذ فترة، نعم منذ فترة طويلة ؛ إلى أي مرجعية يمكن إلصاق أقواله الحزينة التي التقطتها صدفة ؟ أين نضعها، وفي أي سياق ؟ ولكن لماذا هذه الرغبة في وَضعها في مكان ما : «... هذا الفضاء، هذا الفضاء المحدود. الفضاء الذي نبحث عنه في كل مكان. فضاء لا يفقد من قوته، في أية لحظة. والعنف الذي يجد منبعه، المنبع الذي يتغذى منه، وبعد ذلك المنبع الذي ينتشر منه، وهو أمر طبيعي. ومع ذلك كان الصمت في المحيط مطبقا بحيث نسمع أنفسنا نصمت ونتكلم في آن ولا نتصوّر أنّ شيئا سيأتي ولو عن طريق المصادفة ليعكر هذا الكلام، ويفصل الصمتَ عن الصوت أو عن وجه العتمة التي ينبعث منها، دائما هذا الكلام الذي يجتر القصة نفسها، قصتنا الساخرة، المرعبة ؛ كان الصمت مطبقا بحيث أنّ ذلك الوجه، الذي رأيته أو لم أره، سوف لن يرفض التشبه بوجهنا، وسنكون عندئذ مستعدّين جميعا لنتعرّف فيه على أنفسنا، ولكن ليس هذا ما أردت قوله، لسنا هنا للحديث عن هذا الفضاء، وإن اكتفينا بتعيينه في ليلته والقول كيف كان صمته يحرسه بصرامة، أو لنقول بأن كل شيء يحدث دون أن يُنجَز». إنّ هذا التوقف يسمح بتوقع بقية لقصتنا، وهذه سوف لن تتأخر، أشعر بها

آتية. كانت الزوجة بدورها متأثرة، فاستغلت الوقفة لتقول : «ألا تريد أن تدخل ؟» ولكن الرجل استأنف خطابه بغتة، غير عابئ بالدعوة اللطيفة : «لا أطرح أي سؤال، لست أهلا لطرح الأسئلة، أندهش ؛ أندهش فقط، أتساءل عما يحدث، عما تريده أيضا، هذه الليلة، ليلة رأت حدوث أشياء كثيرة هناك، وسيحدث مثلها الكثير، وهي تنتظر الآن هنا. لقد أذاعت سلفا قصة كاملة، ثمّ ردمتها تحت ألف طبقة من الصمت. قصة بأكملها، ولكن ليس الكلام المسترسل الذي يحكي، الكلام المتعنّت الذي يفرغ القصة نفسها ثم يعيدها من أولها، وهو الشيء الوحيد المهم. لذلك تجدني أنتظر. أنتظر أنا مثل تلك الليلة. لا صبر ولا لهْفة».

كنت مذهولا في تلك الليلة، انتظرت أن ينتهي الرجل، أن يتقيأ أحشاءه. كان من المستحيل هزّ الجمود الذي أسال الرصاص على أطرافي. لم يضف أية مهاترة إلى تلك التي لفظها بحشرجة في صوته، ولم يتسرّع للتلفظ بأخرى جديدة. لم يلفظها لتسمعها المرأة، لا، لا شك من هذه الناحية. لقد خصّها لليل، لهذه الليلة ولأشياء حدث فيها صدى لانشغالاتي الخاصة ؛ مع أنه لا يوجد أدنى حظ كي يكون هذا الغريب على دراية بها، ولم يكن عرض هذا الهاذي المعتوه بالنسبة لي مفاجأة. مع أنّ صوت المرأة ارتفع أكثر، متوسّلا : «يمكن أن يسمعنا أحد، أكيد أنّ هناك أشخاصا يسمعوننا».

أجهل إنْ كان الوجه يحمرّ في الظلام، ولكن أظن أنّ هذا ما حدث لي. تركت نفسي أقع في الفخ لأنني لم أفكّر في إبراز حضوري مسبقا : فخ فضولي، فخ هذه الساحة، فخ هذه المدينة، فخّ عصي التحديد، لظاهرة أخرى، لظاهرة غريبة مثلما يحدث لنا الوقوع فيها بعد فوات الأوان. لم أكن أعرف ما أفعله سوى مدّ أذني أكثر ومنع نفسي من القيام بأية حركة من شأنها فضح وجودي أمام الزوج. أعترف أنه موقف ساخر ذلك المتمثل في الاختفاء ومواصلة الإصغاء لأقوال شبه عمومية لأننا بدأنا سماعها. ولكن هذا الحكم يكون صائبا إلا عند من يجهل الجوّ الخاص لتلك الليلة.

تَواصل الصمت بعد ملاحظة السيّدة، فاعتقدت جازما أنّ صاحبها سوف يكتفي بهذا الحدّ. في تلك اللحظة نشر الصوت الأجش ظل الساحة : «اسمَع قصة هذا المريد، أتعرفها ؟

– لا يا صديقي... لا يبدو لي ذلك. ألا تظن بأنه ينبغي علينا الدخول ؟

– «معلّمي، معلّمي، لي خبر مهم أزفه لك»، قال المريد ذات صباح لمرشده، بعد حصة تأمل وخشوع. «تكلّم. ما الموضوع ؟» استَخبر المعلّم. قال المريد : «لقد درّبت الروح والإرادة جيدا، وأشعر بنفسي قادرا على المشي فوق الماء. – أحقا ما تقول ؟

– أنا متأكّد مما أقول. ماذا ينبغي عليّ أن أفعل ؟ – تعالى. امشِ فوق الماء» همس المعلم الذي تقفى أثر مريده. وصلا إلى الَضفة القريبة. قال المعلم : «إنّ مياه الشاطئ لا

تقاوم جيدا. ستكون أكثر متانة في عرض البحر. – بكل تأكيد، معلّمي، بكل تأكيد. – اركب في قاربي، سأوصلك». ابتعد القارب عن الشاطئ بقوة التجديف. بعد ذلك قام المريد ووضع قدمه خارج المركبة. نظر المعلّم إلى المريد وهو يغرق في اليمّ دون حراك».

بعد ذلك حدث شيء مثل تمزيق قماش، وفكّرت : يا له من صوت غريب. ثمّ فهمت، إنّه صديقي المهذار، كان يقهقه. فهربت بخطى سريعة، غير مكترث حينئذ إنْ جلبتُ الاهتمامَ نحو شخصي أم لا. كنتُ على مسافة بعيدة نوعا ما حينما استمعت إليه يضيف بنفس الحشرجة في الصوت : «يوجد منا من يشبه هذا المريد !»

استمَع صديقي بهيئة وقورَة ودون أيّ تعليق إلى المُجمَل الذي عرضْته عليه حول ملاحظاتي المتعلقة بالحفرة. لم أهمل بعض التفاصيل الشائكة مثلما ارتأيت أن أفعل في المرات السابقة. اعتنَيت بأنْ يكون تقريري مكتَملا بالقدر الممكن، بل نهائي إنْ صحّ التعبير، مثل معاينة مُحضر قضائي. كان تفكيري الشخصي حول الموضوع سيكون زائدا، لهذا احتفظت به لنفسي. انتهيت. بقي ساكتا. احترمت صمته. لم يكن في نيتي صَدم عواطفه، ولا ابتزاز تفسيرات بأي ثمن. فكّرت مع نفسي وأنا أنتظر منه رأيا : «كُن لبقا. إنّ القضية حساسة».

بعد أنْ أخذ كامل وقته، خرج من صمته ليدليَ لي بكلام مهدِّئ. بقيت مذهولا. كما لو أنّني كنت الشخص المحتاج إلى المواساة وليس المساكين القابعين في الحفرة ! لم أكن أنتظر مثل هذا الردّ بحيث أصبت بالخرس أنا أيضا فغادرته دون أنْ أجد ما أضيفه. دون أنْ أجد ما أضيفه له، هل كنا نتحدّث لغة واحدة ؟ طرحت السؤال على نفسي بعد أيام قليلة عندما تمكنت من إعادة النظر في محادثتنا بالتراجع الضروري، أي بموضوعية، وانفصال أيضا. لا، لم نتحدّث لغة مشتركة في أية لحظة، صديقي دوديرِك وأنا، ليس عندي الآن أيّ شك في هذه

النقطة. كلما تعارفنا وتخالطنا أكثر كلما أدركت أنّنا سوف لن نتكلم لغة مشتركة أبدا.

سأعود، لا أطيق الصبر، أركض إلى الحفرة كما لو أنني أريد من جديد التأكد من واقعيتها... كادت ثقتي في نظرتي الخاصة إلى الأشياء تتزعزع في ذلك اليوم بحضور دوديرك. هذه المرة أغذي الأمل أنّها ستَمنح لي، ليس سرّها، لا أطلَب مثل هذا الأمر، وإنّما إشارة على الأقل، من تلك الإشارات التي تقول الشيء الكثير عن جوهر الأشياء، أكثر من أطول الخطابات. أعرف أنني لا أستطيع مغادرة جرفير بهذا اللغز في أمتعتي. سوف لن أتحمّل مواجهة رهانها غير المعقول إلى آخر أيامي. سأرضى بنصف اعتراف. تَبّا لهذه الحفرة المرعبة، إنها تؤرقني وتنغّص راحتي !

كل شيء في مكانه. لا أجد تفسيرا للشك الذي زعزع ثقتي برؤيتي، كيف أفقد إيماني بحاسة النظر عندي. أجد نفسي أنحني على فراغ في توازن هشّ. أتشبّث بالجدار الصغير، وأجهد نظري في تفحص أحشاء الحفرة. إذا كان ضوء الظهيرة لا يزال يحيطني فإنّ ظلا سريعا ومهيمنا يلفّ الأسفل كما المدّ الصاعد. أدركت أنّ سكان هذه الأعماق بَدأوا يزحَفون باتّجاه مخابئهم من خلال تحركات تلك الأقدام الضامرة. تمكّنَت تلك الهياكل المجففة من استقطاب حرارة آخر أشعة الشمس، وها هي الآن تنسحب. تكشط الصخورَ بمخالبها، تلفظ مجساتها في اتّجاه، ثمّ في اتجاه آخر، في استكشاف بطيء يتجانس مع

ذلك الفضاء الداكن، فينتهي بها المطاف إلى جمود يتماهى مع الصخور. تتجمّد هذه الارتسامات المثيرة للشفقة في حلم مشلول بمجرّد تحقيق هدفها. وعند كل توقف، تنبطح في مكانها، في المكان الذي وصلت إليه، حيث تقلّد الأجساد خشونة الصخر. ثمّ من جديد، بحركات لا تكاد تدرك، قطعة بعد قطعة، تنتصب وتستأنف سيرها قطعة وراء أخرى. تنسحب في نظام مدروس، واعية، إنْ صحّ هذا التعبير، بطول المسافة التي ستقطعها، ولا تُظهِر استعجالا ولا تلهفا غير لائقَين بها. تتنازل لبعضها بعض عن الممرات وتتبادل في الآن نفسه شيئا أشبه بالتحيات اللمسية ؛ تحيات لمسية : ولا يتأخّر بعد ذلك إلا ضعفاؤها، وربما شيوخها الذين بلغوا القرن ويجدون صعوبة في الالتصاق بالصخور اللزجة. بدورها تختفي هذه المتأخرات، أما أنا فأجد نفسي هنا، لا شغل لي إلا فتح عينيّ على اتساعهما ومواصلة التحديق.

يا له من موقف مزرٍ ! ماذا أنتظر ؟

لا نطلب إعادتنا إلى الوطن، إنّ السلطة المركزية هي التي تربطنا وتفك عقدنا في اللحظة التي تراها مناسبة، وحسب نواميس هي وحدها تعرف إجراءاتها التي تبقيها سرية دوما. مع أنني طلبت إعادتي إلى البلد. بعد أن بعثت إليهم جميع التقارير الممكنة حول جميع الموضوعات ذات الأهمية، طلبت حقي في العودة. بالفعل، لا أعرف أيّ شخص أستعين به، لا أعرف طريقة أخبر بها الدوائر العليا، كما أرغب في رؤية أُرْسُول، ليرجعوا لي مدينتي، لأتمكن من لقاء وجوه تكلّمني، وجوه أستطيع السفر عبر تقاسيمها، مثلما يحدث لنا حينما نقوم بدورة بمحاذاة أسوار المدينة، مثلما نشرب شايا تحت ظل أشجار الدلب، مثلما نجري باتّجاه البحر، نواجه بصدورنا بحرنا المتوسطي، نتمايل تحت لهب الشمس، ونغمض عيونَنا في انتظار معتّم، قبل أن نتلقى صدمة المَوجة. والليالي، عظمة تلك الليالي التي غمرها ضوء القمر وأدفأ سطوح أُرْسُول البيضاء! وفوَحان الياسمين، هذا الفوَحان الذي يلفّ السطوح كسرّ مغر إلى أن تتدفق عليه رائحة الصباح، عارية، ساطعة. يبدو لي أحيانا أن هذه النفحات وهذه العطور، ومعها عنف السعادة الساخرة، التي تفرغها على الأرض، تأتي إلى هنا، إلى غاية جرفير، وتلمسني. تعذّبني هذه الدقائق، وأبدأ في ترقّب المحيط كما

لو أنني سأميّز وسط ذلك الضباب تألق أُرْسُول اللامع. ولكن لا أثر لانعكاس أي لمعان في عمق تلك الكتل الهوائية وأدرك أنه لم يحن بعد الوقت الذي سأضع فيه قدميّ في أرْسُول، حيث أجوب شوارع مدينتي العصية الإمساك. في انتظار ذلك اليوم، في انتظار الغد، أستطيع القول مع الشاعر الذي فقدَت ذاكرتي الخائنة اسمَه :

جنون لا جدوى منه

عينك في الفيافي

تقتفي حزنه...

مع أني أفكر جيدا بأنّني سأُستَدعى من يوم لآخر وأعتبر نفسي على وشك الذهاب من الآن. لهذا سأمنح لنفسي بذخ تجربة، أو إن شئتم مناورة، اللفظة غير مهمة، حينما يقع الأساس... بعيدا ؛ سأعيد التجربة التي خضتها مع خادم الفندق السابق مع الخادم الجديد. تجربة، مناورة، وستكون الأخيرة : أرى من الآن كيف سيجري المشهد، ذلك الذي سيسبق المشهد الحقيقي. سأنادي خادمي، وسيظهر في استعجاله قبل حتى أن أنتهي من الضغط على زر الجرس. سأتركه يعتصر قليلا في وقفته. ثمّ أسترسل في ذكر المكان اللعين وزبائنه. وماذا يحدث عندئذ، سيرمي الطائر رأسه إلى الخلف ليتفرسّني جيدا وجها لوجه، ازدراءً لجميع القوانين التي تتحكم في تسيير سلوك خادم. إنّ هذا الخادم أصغر من السابق، أكثر عصبية ودمه يغلي بسرعة، سأواجه خصما قويا. ازدراءً لجميع القوانين،

ولكنني لم أتأخّر عن الانتباه بأنّ عينيه تفيضان برعب جبانٍ وغير معقول، ولا تعبران عن التحدّي مثلما بدأت أشك في أولِ الأمر. إنّه نوع من الرعب المقدّس الذي يظهره الناسُ البسطاء أمام أيّ شيء يخفي سرّا غيبيا. وهو الشيء الذي لم يسهّل علي المهمّة. أرى من مكاني ارتعاش يديه الحمراوين القويتين المتدليتين قرب خياطة سرواله. قلت له : «طيّب، ما رأيك ؟»، غَير آبهٍ برعبه ولا بما يمكن أن يشعر به. وهو الذي قابلني بتذمّر ؛ إجابة جميلة في حقيقة الأمر، تليق به جيدا ! مع أنّ درايتي بالناس تحذّرني بأنني سوف لن أنال شيئا إضافيا من هذا الشخص. ومن حينها لم تعتّب أية كلمة شفتيه بعد ذلك التذمّر الممزوج بذعر انتقامي عميق. ها هو يصاب بالخرس، أو بالشلل : كيف لي أن أعرف، لقد بقي مسمرا على بعد خطوات من الباب، وبقينا متخندقين، كلّ في موقعه، هو يراقبني، وأنا أتفرّسه. ولكنّه أخطأ بالخصوص، أخطأ في النقطة الأخيرة إن كان يفكر أنّه سيتَخلّص منّي بهذه السهولة. سأستغل تفوقي إلى النهاية. فواصلت : «صديقي، لا نستطيع بضربة واحدة، أو إنْ شئت، لا يمكنني الاكتفاء باجترار نفس القصة في كل مرة، والبقاء هنا، والشعور بالرضا... ذلك أنّ هذه الحفرة توجد فعلا، لقد وُجدَت عبر كل الأزمان، وأنتم، أقصد أنتم سكان جرفير، فقد كنتم دوما على علم. ربّما وجدتم الأمر غريبا أنْ أكلمكم بهذه الطريقة. أمّا أنا، فأقدّر أنّ مُحاولتكم إنكار هذا الشيء ذي الشهرة العمومية أمر مثير للسخرية، شيء يُعرض في وضح النهار، وتلعبون دور الجهلاء، ضاربين عرض الحائط

بالعقل السليم. لا أعرف السبب الذي يجعلكم تتخذون موقفا ستنقلب نتائجه الكارثية عليكم - فعلا لا أعرف. ولكنني مُستعد للمعرفة، للفهم. فسّروا لي هذا اللغز، وبما أنّك أمامي الآن تكلّم بكل حرية ؛ تكلّم بطريقة واضحة ومتميّزة أيضا. لدي اعتقاد راسخ أنّ لديك الكثير مما تقوله، أكثر مما تريد إظهاره، أكثر مما تشك فيه : كيف الأمر إذًا ؟ لا تتصوّر أنّها ستختفي، ستتبخّر كالسراب لأنكم قررتم السكوت عنها. ربّما تساءلتم لماذا يهتم بمثل هذا الأمر أجنبيٌّ مثلي، وفيما يَهمُّه أمرُها. سأكون عاجزا عن إعطائكم جوابا يرضيني، أنا أول من سوف لن يوافق عليه. في المقابل، يمكنني أن أؤكد لكم بأنني تلقيت صدمة قوية عند اكتشافي لهذه الـحُ... المكان. أظنّ أنّك تسمعني، وتفهم شيئا مما أقول. إنّ أيّ شخص سيكون في مكاني سيَتلقى مثل هذه الصدمة. ضَع مكانك في ثوب شخص يدخل مدينتكم ويصطدم بهذا المشهد دون سابق إخبار. إنّي لمْ أعد أجد طعم النوم، صدِّقْني، إني لا أنام. ربّما لاحظتَ ذلك بنفسك : لا أدّعي أنني ذهن حاذق أو شخص يعطي الدروس، بل أنا بحاجة إلى أن أتعلّم منكم الكثير. ربما سألتني : «ماذا تريد أنْ تَعرف ؟» ؛ سَأجيبك : شيء قليل، ماذا يدور في أذهان ناس هذه المدينة، في ذهنك أنتَ، الإمساك بطرف ضئيل من تفكيركم، شيء بسيط جدا، ولكني أشعر به هنا، فوق راحة يدي. وهو ما لم أتمكن من الحصول عليه إلى حدّ الساعة، وبأية وسيلة».

إنه الخطاب الذي لا يمكن أن يتملّص منه برغم ذكائه الظاهر، وخلال ذلك كان الوميض المرعوب، المتلألئ في عينيه عادة، يتكثّف في نقطة حادة ويحوّل نظرته إلى سكاكين، فأواصل كلامي غير آبه بشيء : «لأنني أتصوّر أنه إذا كان الرجل مذنبا في هذه القضية، يجب، نعم يجب أن نلتمس منه الاعتراف، عاجلا أم آجلا، أو أن يبادر إلى شيء من هذا القبيل، إلى شيء إيجابي على كل حال. أعتَقد أنّنا اتّفقنا من حيث المبدأ. صحيح أنّ هذا الاعتراف سيكون غير متوقّع، أو إنْ شئت التدقيق، لن يكون ذلك الذي كنا ننتظره، ومع ذلك لا يعود إليّ الحكم عليه. أعْتقد أنّك تتصوّر جيدا أنّ ترك مثل هذه القضية إلى الصدفة لا يُرضي أحدا، أو أننا ننتظر إنقاذا من السماء، – فأنتظر أنا أنْ يأتي واحد من مواطنيكم ويقدّم لي اعترافاته من تلقاء نفسه. لهذا أعتمد عليك. أعتمد كثيرا على مساعدتك وتجربتك، صدّقني سوف لن تندم».

أوحيتُ له بإمكانية تلقيه بقشيشا محترما، يتجاوز كل ما سبق أن تحصّل عليه، كل ما حلم بجمعه إلى غاية هذا اليوم، أو أنني أخطأت التعبير في جملتي الأخيرة، ولكنه سمعها، أضع يدي في النار أنها وصلت إلى سمعه. يملك هؤلاء الناس حاسة سمع رقيقة تشبه نوعا من موسيقى الكلام. فمهما كانت تحفظاته، ستُرفَع الآن، ستحل حجّتي المغرية عقدةَ لسانه ؛ ولكنني أحسّ بما سيقوله أوّلا، سيجيبني : «ولكن سيّدي... إلى أين ذهب ظنك سيّدي ؟»، كما لو أني أخطأت في افتراضاتي مع أنه لا شيء من هذا قد وقع وهو يعرف

ذلك، يظهر جليا في الإحراج الوقح الذي أحسّ بنفسه أنه كان مجبرا على إظهاره، فيتعنّت مزدريا من البداهة التي قدّمتها له ليتلعثم : «ماذا يقصد سيّدي ؟ هل من المعقول أنّ سيّدي يعتبرني مذنبا ؟ وقبل ذلك يجب أن أعلم طبيعة التهمة التي يوجّهها إليّ سيّدي ؟» ولكنّي لا أترك نفسي أقع في مثل هذه اللعبة. طبعا هو أيضا يلعب لعبته، لعبة سوء الفهم، والحوار المستحيل. كما الآخرين، كما جميع الذين أردتُ مفاتحتهم في القضية والذين اعتقدتُ أنهم سيسمعون كلامي. وهنا أجيبه بتمهّل، دون أن أفقد رباطة جأشي : «ماذا أحكي ؟» قبل كل شيء، يجب التريث، ولهذا عليّ بالصبر الجميل : «تقول ماذا أحكي لك ؟ ستعلمه، سأشرحه لك حالا، أصغ إليّ لبضع لحظات فقط». فوجدتُ متعة كبيرة في رواية المَشاهد التي رأيتها هناك بعينيّ، مشاهد مرعبة، مشاهد منفّرة، ومع ذلك لم أترك أدنى تفصيل إلا وقصصته عليه، مستعدا لأثبت له قوة عزيمتي وإصراري على لفظه من آخر قلاعه، هو الذي يتصوّر نفسه قويا بنيته الخبيثة وأنّها ستحميه. أضَفْت في آخر المطاف : «لا أريد أن أفكر بأنني أقوم بتعذيبك يا صديقي، تأكّد بأني لست وحشا. بالعكس إني أميل إلى تفهم كل شيء -أتفهم بالأخص كم تكون بعض الأسرار ثقيلة للحمل وكيف نتعذّب بسببها- والصفح عن كل شيء. ومع هذا، أنا قادر على إظهار صرامة قصوى، وأنا على دراية بالوسائل التي تجعل الشخص يتكلّم». أنا متأكد هذه المرة، هدّدت عيناه بالخروج

من مَحْجَريها ولا يمكن لحاجبيه المشعرين بسوادهما العميق أن يخففا في شيء من ذلك الإحساس البشع، سيتكلّم.

*****

توجد أشياء لا يمكن أن نتعايش معها لمدّة معقولة دون أن تنشر تأثيرها، ثم نفوذها علينا. أنا الآن مأجور لمعرفتها. ستحتل مكانا في تفكيرنا، ثمّ تلهم خطاباتنا وأفعالنا، تقودنا حسب هواها ونندفع نحن، ممتلئين بجهلنا، الأذهان مغلقة والعيون مغمضة، ونعتقد أننا نملك حرية تصرفنا. إنها المغامرة التي وقعت لهم، حسب رأيي، لصديقي دوديرك وجميع سكان جرفير، وهم ممتلئون بجهلهم ؛ على الأقل لأولئك الذين جعلتني الصدفة أو الضرورة ألتقي بهم وأحدّثهم. نعم، لجميع هؤلاء، ربّما باستثناء... ربّما باستثناء غريب الساحة الذي لم أقترب منه، وبسبب تلك العتمة الليلية التي أبقت وجهه وشخصه في حماية كل تلصّص. أنا مثله، لم أتوقف عن البحث عن كلمة اللغز، هذا اللغز الذي يسخر مني منذ اليوم الذي وضعت قدمي على هذه الأرض، وأنا أحال على التماس بانتظام، لذلك بدا لي أني أصارع أشباحا، -الفراغ : أجده في أية جهة ألتفت. كما أجد أنه ليس أضجر من لغز لا نفك طلسمه، من هذا البحث الدؤوب الذي لا جدوى منه. هذا البحث الذي لا جدوى منه **ذلك الذي ليس له اسم والذي يحوم حولك بلا كلل في أمل أن يتحصّل على واحد ولكنه لا يتلقاه أبدا**، هذا التساؤل الذي لا تستطيع أية واحدة من تلك الافتراضات التي أصقلها الإجابة

عنه في أية لحظة، بل لا تصلح الواحدة وراء الأخرى لتغذيته، تهيّجه، وتخضع مخي إلى تعذيب شنيع. مفتاح السرّ، أين يختفي ؟ بعد قليل من التردّد، ضربت عرض الحائط بجميع الأعراف، واتصلت هاتفيا بدودِيرك وأخبرته بالزيارة المقبلة التي أنوي القيام بها عنده. «نعم، في المكتب. هذا هو».

بالأمس رجعت إلى هناك بعد أنْ فارقت دوديرك. رجعت مرة أخرى ووصلت إلى ذلك المكان، وبدأت أصرخ فيَ اتّجاهها. صرخْت، ناديتُ عليها، طويلا، إلى أنْ بحّ حلقي. بقيَت خرساء أمام ضجيجي. سواء كانَت مَقسوطة أو نائمة، فقد حافظت على هيئتها دون أدنى تغيير –غير مبالية بكل ما يصلها من تلك المرتفعات. ماذا كنت أنتظر، بأي أمل ركضْت إلى غاية تلك الأماكن ؟ كنت سأمنح ثمنا باهظا لمعرفة نوع الأفكار التي تختلج في مخها إن كان لديها مخ وقادرة على استخدامه. بَين الفينة والأخرى، تُمدّد إحدى تلك الكائنات ذراعا أو ساقا متقلصة. سوف لنْ يذهب بي الظنُّ إلى اعتبار هذه الحركات جوابا، ولا حتى إشارة تحفيز كي أتواصل معها، لا، وبكل إرادة الكون. في انتظار ذلك، نجحَت في تثبيت أجسادها فوق الصخور، والبقاء مُعلقة بها برغم أكوام المياه التي يرميها عليها البحر، بصواريخ الزبد، فاندهشتُ من مقاومتها التي لا نعتقد من الوهلة الأولى أنها قادرة على ضخها. وأمام هذا المشهد، بحثت عن أية أسئلة أطرحها على نفسي، فلم أجد سؤالا واحدا. شلّني رعب مهيب، وتركت نفسي أنجذب بتلك الرؤية الشنيعة مثلما حدث لي في المرات السابقة. إنّ الواقع يتنازل لها عن كامل مكانها – كامل الواقع.

باستثناء الأشخاص الذين تربطني بهم ممارسة وظائفي، فإني لا أرى غيرهم كثيرا. قلّصت لقاءاتي إلى الحدّ الأدنى. لا أردّ على الدعوات، فقلبي لم يعُد يتحمس لشيء. في المقابل، كنت بحاجة ماسة إلى العزلة، أكبر قدر من العزلة يمكن لرجل أنْ يحتاج إليها. حينما لا أقوم بزيارة تفقّد إلى ذلك المكان غير المسمّى، أفضِّل الانغلاق داخل شقتي والإغراق في التفكير. يحدث لي أحيانا إهمال شغلي. أحيانا ؟ أكثر من هذا، أكثر من المحتمل. أصبح الإهمال عندي هوسا، وله أسبابه ! نعم، له أسبابه. يجب أنْ أضَع حدّا لميل غريب عن طبعي والذي بدأ يقلقني ؛ أقسم أنني بدأت أجد متعة في هذه الزيارات الحزينة. كما بدأت أرْسُول تسكن أفكاري أكثر فأكثر. كانَت تشعّ ببياض ساطع مثل مدينة أسطورية في كامل حضورها المستذكر، ومع ذلك بدَت لي مدينتي الطيبة غير بعيدة عني. إنّها تنقصني.

لقد فعلتها أيضا في هذه الظهيرة، استدعَيت خادم الفندق ولم أتحفظ عن شيء. حينما لا يفرض عليك هذا الدور يقينا ما، يترك لديك على الأقل الإحساس بأن لدينا مسئولية ما ؛ في تلك المؤسّسة البشعة أقصد، لا يحضر إلى ذهني لفظ أكثر ملاءمة لتعيين ذلك الوجار القذر. برز لي ذلك من النظرة الأولى التي ألقيتها على الشخص. لا أريد قول ما لا أفكر فيه، أن لا يكون إلا هو لتسيير هذا النجاح البارز، أو أن يكون هو مخترعه، أمر فيه مبالغة، سيكون جميلا جدا. إنّ قيادة مثل هذه... المؤسّسة يتجاوز من بعيد قدراته الإبداعية،

طاقته، علم رجل معزول وسجين موارده الخاصة، هل كان سيملك عبقرية : وفوق كل هذا عبقرية شخص متواضع، مثيل ذلك الذي يواجهني في بداية هذه الظهيرة. أنا على دراية بالرجال، لا يبدو موهوبا إلى هذا الحدّ، ينقصه الكثير كي يصل إلى هذا المستوى. لا، إنه مذنب من بين كثير من أمثاله، مذنب صغير، وضيع ؛ ولكنه مذنب. ولن أندهش إنْ التقيتُ بواحد في شخص هذا الخادم الذليل، بل النموذجي، وهذا يكفيني. أنظر إليه الآن بعينين جديدتين : خادم عاد لفندق مشهور نوعا ما ! لمَ لا ؟ إنّ الصدفة تخدمنا أحيانا، أليسَت الصدفة هي التي رمَتني إليه.

امتلأت بأهمية ما اكتشفته هنا فقلت له دون أن أفقد خيط فكرتي : «أصبحَت هذه الحفرة واقعا دخل في الأعراف، برغم خصوصيتها». ثمّ وبضربة واحدة أطلقت في وجهه الكلمة التي كانت تحرق لساني منذ فترة : «إنّها مؤسّسة ! نقبلها، نتعايش معها، أصبحَت جزءا من حياة كل شخص، لقد راقبتُ الوضع جيدا، لا أحد يتصرّف كما لو أنها غير موجودة. ومن جهة أخرى لا أحد يجهل أنّ الجميع على علم ؛ على علم بوجودها (وبالباقي)، ومن ثمّة يمكننا استنتاج أنّ الجميع يعرف لماذا هي موجودة... ومن أجل مَن. أقول لك بأنها مؤسّسة. ولكنك سترّد عليّ : «لا أحد نبس بكلمة حولها، ولا أشير إليها ولو بالتلميح». حينئذ أجيبك بأنّ المسألة أضحَت من البديهيات، وقد استسلم لها الجميع، بحيث أصبح الحديث عنها أمرا غير مجدٍ، وبالتالي عبثيا بامتياز. الحديث عنها ؛

ها قد حان الوقت، لقد لمسنا النقطة الأساسية للحوار. لا أرغب بأي حال أنْ أضلّلك أو أن أحرّضك على ارتكاب زلة ما، سجِّل هذا جيدا، ومع ذلك اعترف بأنّ كامل المسألة تكمن هنا. أن تكون حذرا، كتوما، جادا، مسرعا، هذا أمر مفروغ منه، لقد تأكّدتُ منه بنفسي. ولكن توجد الليالي بلا نوم، اليقظة المفاجئة والجسد يتصبّب عرقا، الكابوس وما يجرّه من أشباح، ووحوش، ومصاصي دماء وكائنات أخرى غريبة. كما يوجد الندم، وسخط الروح الرحيمة وكذا الرفض الحاد لكل دناءة. يوجد الاعتزاز، توجد جرأة اليأس. حينئذ كيف ستبقى غير مبالٍ، تبقى دون أن تسأل أين واجبك، - دون أن تستبد بك الرغبة في ترجمة هذا الحماس النبيل إلى أفعال، أو على الأقل إلى أقوال. ولكن هل أثبتّ شيئا : بعيد عني مثل هذا الزعم، لا أستطيع شيئا، ولا أفكر في شيء خاص، ثمّ إنه لا يليق بأجنبي – مَن أنا غيرُ هذا- أنْ يمتلك مثل هذه الأفكار حول هذا الموضوع. من جهة أخرى، لديّ التزاماتي الخاصة وتشغلني بما فيه الكفاية. ربّما تساءلت ما الفائدة من كل هذه القصة، ولماذا أفرط في روايتها : طيّب، أسلط عليكم هذه الحكايات لكي لا تتهمونني بأنني لم أطرح عليكم السؤال : هذا هو هدفها. كي لا يذهب بكم الظن يوما، أنتَ أو أيّ شخص آخر، لا فرق عندي في هذه الحالة، إلى القول بأنه لم يوجد أحد طرح علينا السؤال. أراهن بأنّك سمعتَ عن أفران المحرقة، وكُن على يقين بأني لا أريد إهانتك بهذا القول، أنتَ الخادم في هذا الفندق، مرة أخرى، أقول مع نفسي إنّه إنسان طيب، وسيقتنع بكلامي،

وستكون حُججي مقبولة لديه، وسيتكلم ؟ بما أنّه مُذنب هو أيضا، يجب أنْ يتكلم، ودون أدني تأخير».

كنتُ أتلفظ بهذه الكلمات الأخيرة، بصوت عالٍ ولكنه وقور، كي أتشبّع بها، كي أقنع نفسي أوّلا، أنا الأوّلَ، حينما رنّ الهاتف، فهزّتني المفاجأة. كما لو أنّ شَخصا ثالثا دخل بغتة وسط نقاشنا، مزعج يريد فرض نفسه بالقوة. رنّ جرس الهاتف مرات عديدة. ركّزت بصري على الجهاز وتركته يرن. كان أشبه بإنذار جاء من حيث لا أدري، صخب لا يعرف له صديق لأنه أعمى، ولكن لا يعرف عدوا له أيضا، وللسبب نفسه. وفي اللحظة التي كنت أستعد لوضع يدي لرفع السماعة، حدث شيء مذهل : تقدّم ذلك الخادم الذليل بذراعيه الممدّدتَين، وفي طرفيهما أصابعه المفتوحة، كما لو أنه أراد الانقضاض عليّ. ثبّت فيه بصري دون حراك. وأمام النظرة الصارمة التي واجهته بها، انهارت ذراعاه، ثمّ سقطت يداه، كي يرفع سماعة الهاتف ويمنحها لي.

بدأ الانتظار يطول، لا أخبار نهار اليوم، لا أخبار بالأمس. وأقل من ذلك في الأيام الأخرى. يماطلون كثيرا في الدوائر العليا ليردوا على طلبي بالعودة. هذا الصباح، عندما استيقظت انتابني شعور قوي بأنّ هذا الانتظار سينتهي قريبا، غمرني سرور كاد يمتصّ الهواء المحيط بي، فوجدت صعوبة في التنفس. كيف سأجد أرْسول بعد سنوات المنفى ؟ أما ما يتعلق بزوجتي وابنتي ومنزلي فقد حدث الأسوأ، خلال الأسابيع الخمسة التي قضيتها في العلاج في مؤسّسة صحية متخصّصة بتوصية من المرحوم الدكتور رحموني –أطلب له المغفرة حيثما يوجد– حين خرجْت، لا أثر لعايْدَة. تركت لي رسالة، تخبرني فيها بقرارها لاحتلال شقة نملكها في قلب أرْسول، احتلتها بمفردها، يعني مع ابنتنا. وقد رأت من الضروري أن تضيف في رسالتها : «أما أنتَ، فلك كامل فيلّتنا، إنها واسعة ولا ينقصها شيء، لا يمكن لك أنْ تشتكي أننا هضمنا حقك». بالطبع ركضْت لرؤيتها، مُهملا الفحوص الطبية التي كان عليّ أن أخضع لها من جديد. اصطدمت بباب مغلق. هل ذهبت بدورها في سفر ما ؟ انتظرتها لمدّة ثلاث ساعات كاملة، وبعد ذلك جرّبت حظي بمكالمة هاتفية. رُفعَت السماعة. قلت دون مواربة : «ماذا يحدث، لماذا هذا التقسيم وهذه الانتقالات ؟». واصلتُ على

هذه النبرة. لا كلمة جاءتني من الجهة الأخرى للخط، صمت أسود يعكّر النشيشُ صفاءَه. ألححْت : «اشرحي موقفك على الأقل، قولي لماذا ترفضين حياتنا المشتركة». فجأة خنقني خوف مشين، خوف بئيس أفرغ مخي : تصوّرت ابنتي «ألمى» هي التي تمسك السماعة هناك. هل هي ابنتي ؟ أشدّ تنفسي، أتمنى، بل أدعو من كل قواي، أن لا تكون هي. «ألو، ألمى». مرت ثواني ثقيلة، باردة مثل العرق الذي يسيل بالقطرات على جبهتي. ثمّ أسمع الردّ : «هكذا أفضل». إنّه صوت زوجتي، صوت حيادي، مقتضب. فقدْت صوابي وأطلقت العنان لضغائني فصرخت في الجهاز : «ولكن هذا ليس تفسيرا ! ماذا حدث حتى تتصرّفي بهذا الشكل ؟ لماذا يجب أن تعيشي في جهتك وأنا في جهتي ؟ أريد تفسيرا، أريد أنْ أعرف لماذا». من جديد، لم يأتني جواب. واصلت، مفرغا ما بجعبتي، دون حرج، أمرتها بأن تتكلم : فالتقطت أذني ذلك الاصطفاق الذي يعلن عن إغلاق سماعة الهاتف.

إن لم تبق لي العائلة، بقيت لي أُرْسول وأنتظر.

كانت العادة هي الأقوى، كتبت تقارير جديدة، لا أعرف كم عددها، أرسلت واحدا منذ فترة قليلة. إنها ملاحظات شخصية. تتعلق بالحفرة وبالسرية التي تُحيط نفْسَها بها، أو التي تُحاط بها – بإفراط كبير حسب رأيي–، أدوّنها الآن على الورق وأرسلها إلى وزارتنا للتنمية. وكي ألِمّ جيدا بالموضوع، أضفت قصة تحقيقاتي الميدانية حول الموضوع، تحقيقات غير مثمرة

صحيح، ولكنها ستأتي بنتيجة عن قريب. أصبَحَت رسائلي من الآن فصاعدا لا تتمحور إلا حول هذا الموضوع. أبردْت آخرَها منذ لحظات فقط، مثلما قلت لكم قبل قليل، وها أنا أشعر بنفسي الآن متحرّرا من كل التزام، لست مجبرا على شيء. ولا أرى شيئا آخر أقوم به : لا شيء رسمي ؛ حرّ. حرّ كالهواء. على كل حال، حان الوقت بالنسبة لي لأخذ سيارتي من الطابق الأرضي للفندق والابتعاد : إلى أيّ مكان، أصبحَت هذه هي القاعدة منذ فترة، وفي كل يوم.

أذهب، تتدحرج السيارة بسرعة كبيرة عبر الطريق. أطارد كل ما يتحرّك وألفظه خلفي. تحل الدورات عقدها أمامي كما لو أنها أُخبِرَت بقدومي، ثمّ تتمدّد، تظهر في خط مستقيم، والزمان أيضا يتكثّف بغلوّ، يتحوّل إلى مادة، إلى كتلة لها ثقلها. أنا وَحدي الخفيف، أجري كالريح، لديّ القوة، أملك منها الكثير. أجري بسرعة جنونية، أدخل، وأستقر في مكان ما في قلب هذه الزوبعة، في منطقة هدوء، فأستعيد عوالمي. تتنفس الآلة من جميع رئاتها، تصطفق أجنحتها، ولا يتضاعف هديرها. كان الطريق الوطني الذي عبرته مألوفا جدا لديّ. غادرته لأغيّر المنظر. لا أتعرّف على الطريق الجديد الذي تلتهمه بمتعة سيارتي ذات الأسطوانات الاثنَي عشر. أين ستقودني، سأعرف ذلك عاجلا أم آجلا. إنّه طريق الهروب. إن البلد الذي يأتي لملاقاتي أكثر خشونة، أكثر مهابة ؛ أكثر خشونة، أكثر مهابة، أدركت أنّ الأمر سيكون كذلك. وهذا لا يزعجني. كانت هذه المناظر الغابية، المتعالية، تتقدّم في مظهر

مَن يتراجع، فأتأملها في مواجهة يقظة، تعبرها التساؤلات الصامتة. كنت هادئا كما لو أني أسترخي وسط المناظر التي أشاهدها، المناظر التي تشاهدني بهدوء مماثل. بعد ذلك، لفت انتباهي ضياء متملّص لكتلة نور قابعة في عمق الأراضي. لم تمكث طويلا، تلألأت، فكانت أشبه بتلك النظرات الخاطفة التي تنتقل من حشد لتتوقف عندك، ولكنها تتملّص بمجرّد انتباهك لها، فيبدو الأمر كما لو لم توجد هناك نظرات، ولم تتوقّف عندك أبدا. قطعت كيلومترات عديدة، سارحا، تاركا تلك الصورة تتبخّر، تلك الصورة الشبحية. دائما بسبب خادم الفندق، ذلك الحيوان الذي أصبح يثير ضغائني ؛ لا يريد أن يخرج من ذهني. سينشر أقوالي في كل مكان، إن لم يكن قد فعلها، أكيد أنه فعلها. ولكنه سينشر ماذا : ما حدث بيننا بالأمس ؟ سيحسبونه مجنونا، وسيُطرد كما سابقه. أنا لا أحقد عليه. أتساءل إنْ لم أكن قد تجاوزت الحدّ أنا أيضا، كدت أخنقه بيديّ، بعد أن كدت أن أُخنَق بيديه هو. من حسن حظي أنّ الهاتف قد رنّ وهممت بالإجابة، فأنقذنا نحن الاثنين. كنت لا أزال تحت الصدمة حينما وصل الكلام إلى سمعي، لم أفهم شيئا، كان مثل مسحوق بَصَقته الآلة. كان نباحا صاخبا رخيصا خالٍ من المعنى، فتشبّث بأذنيّ ذلك الصوت المشوّش، لا أعرف ما سبب سخطه عليّ : «طاليلو ! ألا تتذكّر !» وأبحث في ذكرياتي، طاليلو، طاليلو. تتالت الأسماء في دفتر ذاكرتي ؛ إنّ من يحمل مثل هذا الاسم أكيد أنه سينطبع نهائيا في مخي. ولكن هذا الاسم لم يذكرني بشيء، لا الاسم، ولا الرأس، إن كان حقا

رأس يحمل مثل هذا الاسم ويوجد حقيقة مثل غيره من الناس، فلم يصلني. «You remember me. Don't you ?» قلت ربحا للوقت : «نعم، نعم... أكيد»، دون أن أعرف فيما تساعدني هذه الثواني لأنّ الشرارة لا تريد أن تشتعل، رغم محاولاتي اليائسة بالضغط على القدّاحة. وهو ينتظر هناك في طرف الخيط، وقد أحس بإحراجي. يدرسني أيضا، يقيسني. كنت أدرك كل هذه الأشياء. بدأت أقلق، ذلك أنّ الوضعية التي حاصرني فيها، ربما كانت غير مقصودة، أريد تصديق ذلك، ليست من تلك الوضعيات التي تعجبنا عموما. أخيرا تأدّب وقرر أن يشرح لي : «عند دوديرك، أرأيت ؟ التقينا عنده. لقد نظم، I don't know when، سهرة،I don't know why، أرأيت ؟ بتلك المناسبة. سأشنَق إنْ فهمت ماذا يفعل شخص like you عند هذا المتبجّح. لقد تمكّن من صيدك، مثلما صادنا جميعا. كنت أفكر طول الوقت : «يجهل الشقي ماذا وقع لنا جميعا. يجهل كيف سقط هنا». أرأيت ؟ Anyway، لقد تسلينا جيدا. رغما عنه !» لم يكن هذا الخطاب واضحا ولا سهلا للمتابعة، كان يجب اجتثاث كلمة بعد أختها من جميع ركام التشويش الذي تراكم على الهاتف. ومع ذلك تركني أحلم. ماذا يعني : شخص ? like you ... دوديرك المتبجّح ؟ ... قام بصيدي مثلما فعل معهم ؟...»

«أرأيت» أجبْت بطريقة آلية، قبل حتى أن أنتبه إلى زلة لساني، وتعصف بي رغبة شنيعة في الضحك. هل أدرك شيئا من هذا، لم يبدِ أية ملاحظة، ولا أدركت تغيرا في صوته يوحي

بالشك عندما بدأ يتكلم من جديد. من حسن حظي أنّ كل هذا الحديث دار في الهاتف، وإلا لكان تسبّب في حادث ما.

اتّفقنا على موعد لمنتصف نهار الجمعة، أي بعد ثلاثة أيام من الآن، في أحد موانئ جرفير : «منتصف النهار، أرأيت ؟» دعاني طاليلو إلى قضاء حفلات رأس السنة على واحدة من الجزر الكثيرة التي تزيّن الساحل. لقد سبق لي أن سمعت كلاما عن هذه الجزر الشهيرة، ولكنني لا أعرفها بعد ولا أطلب إلا زيارة واحدة منها قبل رحيلي. وبما أنه لم يضع السماعة، انتهزت الفرصة وقلت له ذلك بكل بساطة. وبلا أدنى ارتباك، صرّح لي أنه هو أيضا (himself) كان ضيفا وينتظر من تلك الزيارة متعة تماثل متعتي. تبّا له، كنتُ سأُصاب بإغماء مباغت ! ما هذا، ضيف يسمح لنفسه بدعوة ضيوف آخرين. يا له من جريء، لا تنقصه الوقاحة. فكّرت في رفض دعوته والتخلص منه بفظاظة، ولكنه أحسّ بذلك فسبقني محتجا : «ستأتي معي، يجب عليك أن تأتي. أنتَ ضيف مثلنا جميعا، وربما أكثر. أفضل من هذا : هناك من يطالب بحضورك، ولا فضل لي في هذه الدعوة، أؤكّد لك، أرأيت ؟ أنا لست إلا وسيطا. لا يمكنك أن تقضي احتفالات رأس السنة بمفردك في جرفير، سيكون الأمر محزنا، بل وقاتلا. سوف لن يتقبّله أحدٌ من أصدقائك».

فليعتقد ذلك ! لقد تقبّلوه جيدا إلى حدّ الآن. أتصوّر أنّ ما يدفع هذا الرجل إلى الكذب بهذه الطريقة هو قلبه الكبير. إنه

رجل طيّب، طاليلو هذا، ندرك ذلك عبر كلامه في الهاتف. كنْت سأبدو خسّيسا لو رفضْت دعوته بعد ذلك، وفي تلك اللحظة لم أجد سببا واحدا للرفض، كما أغرتني مثل هذه الرحلة إلى تلك الجزر الشهيرة. لقد أخذ مني نعم الموافقة التي أرادها، ولكنني هذه المرة أحجمت عن إضافة أرأيت ؟ عند التفكير، أجد نفسي أقل حماسا لهذا المشروع كلما اقترب اليوم الموعود، بل فترت رغبتي بشكل نهائي تقريبا، وألوم نفسي على أنّي أعطيت موافقتي بهذه السهولة. سأكون ضيفَهم على جزرهم، ضيف مَن : غرباء ؛ وهذا لا يسرني بتاتا. بدا لي إلحاح طاليلو مضجرا، زيادة على أنّه وقع تحت الضغط، كما أني لم أجده ينسجم مع ذوقي. غريب سلوك هؤلاء الناس الذين يقتحمون حياتك بغتة ودون سابق معرفة ! أعرف أنه فات الأوان، ولا يمكنني الرفض الآن، لقد أعطيت كلمتي... لا، لم أتذكّر أنّ دعوة دوديرك ولا ضيافته أحدثت في نفسي إحساسا مزعجا مثلما راح يفترضه محدّثي، ولكنه ربما يملك عينا مدرّبة تجعله يرى أحسن من غيره نقائص الجيران، يكتشف أفضل من غيره نقاط الضعف عند أكثرهم حماية. كنْتُ غارقا في هذه الأفكار، وكان شيء آخر يبحث عني، يريد الوصول إلى كياني، كما لو أنها فكرة، مستعجلة أكثر، آتية من بعيد (وربما من قريب ؟)، تفكير، أمر، تفكير أو أمر، يشترط مني أن أتوقف، أن أعود على خطاي، أرجع، -الرجوع دون تضييع دقيقة واحدة لانعكاس الضياء الساطع الذي لمحته قبل قليل. العودة والعثور عليه. لا أظن أنني ابتعدت عنه كثيرا خلال ذلك : أرجع القهقري. أتقدّم

بالخطوة. إنّ ما أحتاج إليه هو مكان لركن سيارتي ؛ سوف لن يكون من السهل العثور عليه. كان الطريق مسطرا وسط الجبل، ضيقا وإلى جانبه السكة الحديدية ؛ أواصل التدحرج. ظهر منبسط من التراب على الجانب فتوقّفت دون تردّد. نزلتُ من السيارة فتلقيت في وجهي نفس الضياء الساطع، بشحوبه المثير، الضياء الذي كنت أبحث عنه. ينبثق من منجم على الهواء الطلق عند الأسفل. يتصاعد من بحيرة ممدّدة مع نوع من الانبهار في انعكاساتها الخاصة. فجر غريب، يتبخّر الضياء بعد ذلك في الحقول والغابات وقرى الأقزام عبر شسوع سكينة الهواء. أشرف على المياه التي تنشرها وتبقيها سجينة لدينا، فترسل إليّ شيئا شبيها بنظرة، أبعد من كل شيء ؛ غريبة هذه المياه.

كان درب يَصعد من الأعماق الغارقة في الخضرة ليلتحق بالطريق، وبالضبط في المنبسَط الترابي الذي ركنت فيه سيارتي. لا يمكن أن يأتي إلا من البحيرة، من ضفافها المختفية. بلا أدنى تأجيل، سلكته، ينحدر مباشرة باتجاه السكنات القابعة في ثنايا الحقل. ولكنه بسرعة يصطدم بواحدة منها وكل شيء ينتهي هنا. قضَيتُ بعد ذلك ربعَ ساعة كي أصعد الدرب الذي هبطته في ثلاث دقائق. فلم يَبق لي إلا أن أستقر خلف المقود، وأسير من جديد، وعيناي تترقّبان ممرا نحو البحيرة، إنْ كان موجودا. لا أرى أيّ ممر. أتقدّم دائما. أقع مرة أخرى على منبسط جانبي. إنه موقف سيارات مقهى ومطعم ؛ تركت به سيارتي، إنّه فارغ. التفتتُ وألقيتُ نظرة على الطريق : كان

على شكل حاجب، وإلى جانبه كتلة ضخمة من الصخور، وفي ذروتها خضرة داكنة تصعد إلى أن تعانق زرقة السماء الفولاذية وتغلق البلد. ومع طول ارتفاعها، ترتفع سقوف أعلى منها بقمم حمراء وقبة جرس من حجر اليشب. ولن يغير هذا شيئا، فلا تمس باحتياط العزلة والصمت المكوّمين في المحيط والذي يبدو أن كل شيء يوجد لحمايتهما. الطريق فارغ، يمتد دون أدني انطواء يكسّر استقامته، ينطلق عبر مجراه المغطى بالحصى، والسكة الحديدية اللامعة التي توازيه، ولا يتوقف لا من هذه الجهة ولا من تلك إلا في عرض السماء، كما لو كان محطة إطلاق صاروخ من الصواريخ. – وها هو الشيء الذي يجب أن ينبثق من هذا الأفق المهووس، يحفر في طرف، ينزلق، يكبر، يركض بسرعة اندفاع : قطار. قطار جاثم على عجلات ضخمة، يمشي الهوينى، يصل بلا استعجال، ولا هدير كبير، ثمّ يمر بلا تصنّع، كما لم يتوقعه أحد، بمسافرين أو ثلاثة عند النوافذ، ثمّ يبتعد، واقعي وخيالي في آنٍ، وإذا نظرنا إلى الطريقة التي استعاد بها الصمت والعزلة هيمنتهما بعد مروره، نميل إلى التصديق أنّ لا شيء حدث. استأنفت بحثي عن ممر إلى البحيرة.

خلال لحظات، تُهت بين الفيلّات. وبعد ذلك تباعدت، وتناقص عددها. تحت أثر الميلان، ظهرت الفيلاّت الأخيرة كما لو أنها غارقة وسط الأوراق وقنوات صرف المياه. تخبّطت وسط الأجمات والأغصان والحقول، كل تلك النواحي القريبة. وكانت البحيرة في خنادقها العميقة تدور في مكان ما، بعيدة، يصعب الوصول إليها، مزيّنة باللآلئ الذائبة. وحينما تظهر،

تنتصب إلى أبعد الحدود كما لو أنها تنحني أمامي. لم أجد الدرب الذي يوصل إليها. يوجد واحد، يتجه نحو ستار من أشجار الحور، ويتدحرج مع المنحدر، يجرّني مثل السابق نحو الأسفل. يتبعني نفس الصمت في كل مكان، أو أنه ينتظرني هنا. يبدو أنه يمتد إلى غاية المياه، أجنحة من النور تتحرّك، شفافة. لحظات قصيرة وأجدني وجها لوجه مع جدار من أشجار الحور، يحيط حقلا بريا ينحدر هو أيضا في هبوط جنوني. كيف لي الدخول إلى هذه الأدغال ؟ ينتصب منزل في يقينه الحاسم، تبدو أشغاله في طور الاكتمال، أو ربّما اكتملت ولكنه غير مسكون. أخاطر من جديد وسط هذه الأدغال، فينتصب أمامي حاجز جديد، انهيار تربة وضعت حدا لتدحرجي. إنه حاجز لا شيء. وجَب عليّ العودة إلى الوراء والالتحاق بخط أشجار الحور. حينئذ انتبهت إلى فتحة سوداء وسط شلال الأجمات، فتحة مررت بقربها ولم أتفطن إليها : ليس الأمر مدهشا، إذ هي لا تنكشف إلا في اتجاه الصعود. يلج دربٌ ضيق ويزيد انحدارا، أشبه بمجرى ساقية. سلكته دون أدنى تردّد، لم يُخفني. استقبلتني طمأنينةُ قبو كنيسة، شبه ظلمة كثيفة تُبقي الهواء سجينا بين الجذوع والأوراق وعشب التربة، هادئا، أخرس. دغدغ سَمعي خريرُ مياهِ ساقية قريبة، فاكتسَب الهدوءُ قوة أكبر.

لا أبدي أيّة مقاومة للانجذاب الذي يناديني وينتهي بي المسار إلى الالتحاق بالساقية. رافقتني مدّة، كانت كتومة، تسيل مياهها مثلما يمكنها أنْ تسيل داخل قَبو كنيسة. بعد

مسافة ليست بالبعيدة، وجدت كوما من الأحجار متراكمة عند عطفة وشكّلت شبه جسر. انتهزت الفرصة ومررت إلى الضفة الأخرى ففارقَني الوادي الصغير ليواصل مجراه الخاص. ولم يبق لدي ما أفعله إلا ترك المنحدر يجرّني نحو الأسفل، دون أن أحسب حساب مفاجآت الحصى، لأجد نفسي في بئر الخضرة. اختفت البحيرة، وكذلك النهار الذي تحوّل إلى غسق. كنت أعرف أنّ الشمس لا تزال تشع في العلى وسط سماء بزرقتها الشفافة، ولكنّي أعرفه عن طريق الذاكرة فقط. بعد دقائق من ذلك الهبوط الغامض، ارتسم منزل ريفي ضخم في فتحة من النور الشفاف. كان قابعا في الأرض، كله خشب، أشبه بفرن عجوز، يتوقف الدرب عنده، ولا يؤدي إلى أي مكان آخر. كانت المياه تلحس التراب على بعد خطوات قليلة، يمتدّ جُسَير لبضعة أمتار وينكسر. طفق قلبي يخفق بسرعة : أخيرا أكتشف هذا النور المائل، الأبيض، ذلك الذي لمحته من أعلى الطريق. تلمسه، تداعبه لفائف من السوائل بلا أدنى ضوضاء. تَضاعَف خفقانُ قلبي ؛ أبدا لم تظهر لي مياه بهذه الهيبة الغامضة، ولم يغمرني إحساس مثل هذا في حضور مياه. أرتَجف، تهزّني حمّى محذّرة، لست بَعد في الهواء الطلق ؛ كان النور الذي يحيطني سائلا دوما. في تلهفي، تسارعْت خارج مغارة الخضرة، ملجأ بأرضية مبلطة، حيث كانت هناك ثلاثة مراكب كادت تتلامس جوانبها، وبدا خشبها قد فقد لونه من كثرة الغسيل. بعد خمسين خطوة، صادفت كتلة ترابية مرتفعة. إنها منبسط على شكل قوس دائرة غمرته المياه. تلقي أشجار

ضخمة، من الدلب والحور والزان والحور الرجراج، ظلالها على المنبسط، كما تترك صورها تطوف فوق سطح المياه. انبهار بامتياز. كم هو قوي ذلك الإشعاع الذي لفني فجأة، يمتدّ إلى ما لانهاية. ولكن العجيب ليس هنا. العجيب هو الصمت، **البُحَيرة مياه صامتة**.

مياه صامتة ؛ انبهار أمام ما لا يُصدَّق، وأمام كل ما ينتشر عبر سكوت الفضاء السائل، لا يفصله عن السماء إلا حزام من الضباب، بلون أقل زرقة من الهواء. إحساس بأنك تقترب من ذاتك، مغامرة تبحث عنها مثلما تبحث هي عنك. وبعد ذلك تنبثق، – من أين ؟ نسمة فتطوي أعلى الأغصان، لينقشع الأفق قليلا. هاج الجوّ وأطلق شرارات الحرية والشهامة. لفظت ملابسي بعيدا، وغطست داخل تلك المياه التي لم تلوّثها أية فضالة بشرية.

الجوّ رائع، فلا يمكن أنْ نحلم بأفضل منه للذهاب إلى الجزر. هذه السَماء : صفاؤها بلا عمق، بلا شقوق، تتخلّلها انعكاسات مذهّبة، لا أتوقف عن ملء بصري بذلك العمق البنفسجي. كسماء، فهي تشبه بفظاظة سماء أرْسول. نفس الانفتاح الشرس، نفس الوداعة الصامتة ؛ صعُب عليّ التصديق. ولكن هذا الجوّ لا يدوم على حاله، سيتغيّر بعد يومين. سعيد جدا، ومع أنني لست في أرْسول. امتطيت التراموای في هذه الصبيحة الجميلة، قطعت جرفير وعينايّ مثبتتان في أغلب الوقت على ذُرى السقوف الزرقاء وليس على المدينة نفسها، ينتابني شعور لم أتمكن من إيجاد تفسير له : بأنّي أعبر وَهْما. جرفير هنا، حاضرة، منتصبة بثرائها، كالثريا، بثبات مجدها العظيم، – وهو ليس موجودا، أو أنه يوجد في عظمة مشلولة، شاغرة، كما عظمة حاضرة منقرضة. مجد حجر. تسلسلت الشوارع، تمدّدت، وبين الفينة والأخرى، تجرؤ روح مغامرة على تحدي هذه العزلة والهدوء الذي يلفّها. دون إرادة مني، ألج جرفير وهي تحلم بحتفها، تنظر إليّ أدنّس حرمتها كما لو كانت قبرا. أواصل تفكيري : « بعد أنْ اغتصبْت حميميتها. ورغم ذلك، لا أحد يعرف، أنا أقل من غيري، ماذا يُخاط في ظلام هذه الشوارع. يلفّ الذنب الدموي، العصيّ الاغتفار، الذي تحلم به جرفير

نفسها بضباب مهلك». أفكّر دائما : « ولكنني لم أفقد الأمل في اكتشاف سرّها، سرها العصي الاحتمال، ستكون لي الطاقة الضرورية». أضْحى الإحساس بالتغليف ضاغطا جدا في هذه المسألة إلى درجة أنني التفتت فجأة أبحث عن أي حضور، عن أية كثافة هوائية تطاردني، تسبقني، أو تحاصرني. الأمر الذي يبدو أنه فضح نواياي ثم التصقِ بخطواتي ليراقب كل حركة من حركاتي. ربما كنت أعيش قصةً ليست لي. أو أنّ هذه المدينة تحاول إغرائي، أضْحى كل شيء ممكنا، ولا يمكنها أن تسلك غير هذا المسلك. مَع أنني لمْ أتمكن من تصوّر الهدف من وراء هذا الإغراء ولا لماذا تجهد نفسها، وتنشر فتنتها عليّ. ربّما تعلّق الأمر بشيء أخطر، شيء غامض، وقاتل. لا يكون الأمر مدهشا. لم أكن متأكّدا أبدا من فهم لعبتها. بالنسبة لي، توجد أشياء أهم، وفي ترتيب الاستعجالات، وأسرعها على الإطلاق، ذهابي الذي أعتبره وشيكا برغم صمت الدوائر العليا. (أندهش ولا أندهش ؛ الدولة لا تجيب، بل ليست مجبرة على الإجابة فقط لأننا نكتب لها رسالة، وهذا أمر متفق عليه. ولكن المسألة قد تختلف : أنا جزء من الحكومة، برغم المكانة والوظيفة التي أحتلهما. فلا يمكن في هذه الحالة أن أعامَل كما يعامَل شخص عادي. لم يحظ تقرير واحد من بين العدد الهائل من التقارير التي بعثتها بإجابة ؛ سواء بالرفض أو بالقبول. لا توجيهات، ولا نصائح، كما لو أنّ دهاليز الجحيم ابتلعتها. فلولا أنّ الجرائد تخصّص من حين لآخر سطرين لبلدي لاعتقدت أنه توقف عن الوجود، وذاب كما الثلج تحت الشمس. المسافة طويلة، وقد

تنشئ بلا شك نوعا من الظلام ؛ أكيد أنّ رسائلي وصلت إلى مقصدها. ولكن هل سقطت بين أيدي نزيهة ؟ هذا ما ينبغي التأكد منه. وهو ما أتمناه وأنا صابر في مدينة أجنبية حيث قضيت أياما، تحوّلَت شيئا فشيئا إلى شهور، ثمّ إلى سنوات، فأصبحْت أحتفل بأعياد ليست لي، وأذهب إلى الجزر أيضا، عادات أخرى لهذا البلد.) بداخل هدير التراموای الذي لا يوقظ عبر هذه المدينة الضخمة التي توقّفت عن العمل إلا أصداء كهوف، وهذا يقلقني أكثر مما يمكن أن يدبّره جرفيري يعرف مرات عديدة في السنة التوقفات الصارمة، -حيث يتوقف كل نشاط، وتغلق جميع الحانات والمطاعم والفنادق، باستثناء تلك القليلة المصنفة دوليا مثل فندقي، دون أن نتكلّم عن محلات بيع المواد الغذائية والملابس. عبادة مخصّصة للشمس، تعمل التقاليد على إحيائها سنويا، هكذا هي هذه المدينة. ومع ذلك شيء ما يشتغل : قطارات التراموای، على الأقل هذا الذي أركبه، لا أعرف لماذا، واحد يوصلني إلى مكان موعدي مع طاليلو. أقدّر أهمية الدور المنوط به، ومسئوليته وتضحيته ومعنى الواجب عنده كي يشتغل في مثل هذا اليوم. في نهاية المطاف، لم أندم على الطاكسي الذي لم أتمكن من العثور عليه، سائقو الطاكسيات هم أيضا في عطلة. الشيء الذي لا يشرفني : كنت المسافر الوحيد. فنذهب هكذا، نزعج بضوضائنا المدينة وبرودتها الملفوفة بالصمت، دون أدنى حياء، وكذلك نفعل بعد قليل مع ضاحية تتثعبن أزقتها عبر حدائق تحدها حواجز واطئة، وحيث تحجم منازلها الجميلة إلى حدّ الافتتان عن

الظهور وسط الأشجار والأزهار العالية، بألوانها الزاهية. كل منزل بأسلوبه الخاص، بجاذبيته المبهرة، يريد أن يكون متفردا، وحيدا، وسنكون مُحرجين لو طُلب منا تعيين واحد يتفوّق على الجميع، أو أن نحدّد من هو القديم، ومن هو الحديث. وفي وسط هذا الاخضرار، يبرز الميناء فجأة ويتمدّد، الميناء الذي ينتظرونني فيه، كعين أيِّلة. عين ميناء صغير، جميل، يتشكّل من جُوَين يختفي انحناؤه بين الأمواج. لا يصلح إلا لسفن النُزه والتسلية، كأنه قُدّ وهُيّئ لها خصّيصا. وفي الأحواض، تركد المياه المصقولة كالمرايا، وتتراصف المراكب جنبا إلى جنب، بطلائها الزاهي الذي تنعكس عليه أشعة الشمس الساطعة، مراكب من جميع الأنواع، بالأشرعة والمحركات، الصغيرة والكبيرة، تنتظر أصحابها لتقودهم إلى الجزر بقصد الاحتفال.

بمجرّد أنْ نزلتُ من الترامواي، تحرّكَت أذرعٌ عن بعد ولم أشك دقيقة أنّ مثل تلك الإشارات كانت موجّهة إليّ. أن أفكّر بأنّ رأسي يوحي بشيء لشخص ما من هذه المسافة قد أرضاني رغما عني. كانوا تقريبا من عشرة إلى اثني عشر شخصا، رجالا ونساءً، يقومون بالحراسة على رصيف الميناء، أرضية خشبية رقيقة تتمايل تحت الأقدام. واصلت التقدّم، وبدأت أميّز الوجوه جيدا. لا وجه معروف لديّ. أكيد أنّ طاليلو، المسمّى طاليلو يكون من بينهم، ولكن من هو ؟ أرمي نظرة خاطفة على الرجال، أحاول أنْ أتذكّر. هناك شخص فقط ينفصل عن الجماعة. كان يملأ بدلة نقيب السفينة إلى حدّ تمزيق خياطتها، ولكنه يشبه أيضا تمثال عرض الأزياء في واجهة محل. أيكون

هو، طاليلو ؟ رجّة مباغتة هزّت بطني. قد يكون هو... يتصنّع الشخص في حركاته، كما لو أنه يعتد بنفسه، أو ببدلته. ولكن لماذا لا يعتد طاليلو بنفسه، ولا يتصنّع في حركاته ؟ فبدأت أفكر جديا في العودة على عقبيّ. في تلك اللحظة، انفصل شخص آخر عن الجماعة وأسرع إلى لقائي. كان ملفوفا داخل عفريتة عمالية زرقاء، لباس غير لائق بالمرّة، يتمايل ببطنه المكرّشة، وهو ما جعلني أتعاطف معه من البداية. يتجاوزني برأسية، أنا الذي لا أشتكي من قامتي. كنت أدرسه في الوقت الذي كانت حركاتنا تقربنا من بعضنا البعض. دمية في شكل عملاق، بوجهه المكرّش أيضا من الأسفل، حاد من الأعلى، بيضة عذراء من أي شعر، ملساء، مورّدة، تتنفس البراءة والدعابة والاندهاش – باستثناء ذلك الوميض الساكن في زاوية العين، وميض يراقبك، في حراسة دائمة، ولا يقل ذكاءً. فكّرت : «الحذر مطلوب. ولكنني سوف لن أقاوم، لن أحتفظ بجديتي حينما يفتح هذا الرجل فاه». وهو ما قام به فعلا، وهو يمدّ من بعيد، قبل حتى أن نلتقي، يدا مسحها قبل ثوانٍ في عفريتته : «الله أكبر ! لقد وجدت طريقك بمفردك. كيفَ حالك ؟ أتتذكّرني الآن ؟» إنّه صوت ذلك اليوم في الهاتف، ذلك الصوت تماما. الصوت الذي يبدو في أوج تحوّله. لا يمكن إلا أن يكون طاليلو، فيه كثير من الشبه. أتلهف للتعرف عليه، من المفاجأة والمتعة، تملكتني رغبة عصية المقاومة في الضحك، ولكني أمسكت نفسي. اختَطفَت يدُه الضخمة، اللينة، يدي وأبقَتْها سجينة لديها بعد

أن هزّتْها طويلا، فجرّتي هكذا قرب أصدقائه باعتباري معرفة قديمة. وأنا الذي اعتقدت أنّ رئيس السفينة هو طاليلو. لا... لمْ أفكر لحظة في مثل هذا الشخص، لم أتوقع أنْ أجد نفسي بحضور ظاهرة من هذا النوع. يبدو أنّ لا شيء رسخ في ذاكرتي من لقائنا الوحيد عند دوديرك، ولا حتى شكله. لا أقول هذا لأنّ الشك باغتني فجأة، أكيد أننا قد تعارفنا وفي الظروف التي حدّثني عنها، - ولكن لأنني أشعر الآن أني ضيّعت شيئا. وعاد إلى سهرة دوديرِك، فألحّ على وصفها بـ «قضية دوديرك» لأسباب لم أتمكن مِن حصرها. كان يتكلّم دون أنْ يُرخيَ شدّ يدي، ولا أن يهتم بالآخرين الذين ينتظرون. سألني عن أحوالي، وعاد إلى الحديث عن تلك السهرة. كانت عيونه المغولية، الصفراء كما حبّات نبات الترمس، تتّسع مبحلقة لكل قول أنطقه. لا يبدو أنه سينتهي من تعليقاته الاعتبارية غير المنتظرة مطبوعة بلفظته المشهورة «أرأيت ؟»، بطفولية تارة، وبوقار تارة أخرى، مهيّجا دون أن يظهر عليه ذلك. ولكنني كنت منشغلا باكتشافي للمكان وللناس، ولمْ أصغِ إلى كلامه بما فيه الكفاية، فلُمت نفسي، محاولا بذل مجهودَ أكبر دون جدوى، كانت أفكاري تتفتّت مباشرة. فكّرت في ذلك اليوم وأنا أكلمه في الهاتف : «هذه الأجهزة تشوّه الأصوات بشكل غريب». الصوت نفسه يجلجل أمامي، وهو مشوّه أيضا. تلقى هذه الهدية من الطبيعة، فلننزّه الهاتف عن كل اتهام.

أخيرا، فكّر في تقديمي لأصدقائه، فانقضّت عليّ النظرات، جميع النظرات، بمتعة وشراسة، كما لو كنت غذاءهم المفضّل.

كان الأمر ظاهرا للعيان، أحظى عندهم بسمعة طيبة، فلم يزعجني ذلك الفضول الودّي الذي أثرته، بل تسليت به. على كل حال، كان الجميع منشغلا بالحديث، بإبراز معارفه، فانبثقت التعليقات من جميع الجهات. لا أحد من هؤلاء السادة والسيّدات فهم شيئا ممّا يقال، ومع ذلك لا أحد منهم استكان للسكوت والاستماع. بل راح كل واحد يتسارع إلى تغطية جميع الأصوات بصوته، فيما ارتفع الهياج والضوضاء. كما لو أنّهم كانوا داخل صالون ضيافة، فقد نسي هؤلاء الأشخاص لماذا نحن متواجدون هنا في الميناء. وأنا ! لست أفضل منهم، أتشدّق بالكلام إلى حدّ لا أسمع كلماتي الخاصة، ولا أقسم أنها تفيض ذكاءً. الشيء المدهش في كل هذه الفوضى أنني تمكنت من معرفة اسم مضيفنا، وهو الرجل الخمسيني المتبجّح داخل بذلة رئيس السفينة. ربّما لأنّ هذا الاسم «فولدراغار» يتمايل منذ مدة تحت بصري بحروف نحاسية لامعة ومسمرة على جانب سفينة صغيرة جميلة. فولدراغار، يا له من اسم سفينة مثير للأحلام ! ولا أعرف لماذا مثلا وبالضبط بدأتُ أحلم به وسط ضوضاء الأحاديث التي زادها لجّ المياه صخبا.

بعد ذلك، انحنى نقيبنا الظريف، بطريقة مناسبة، ودية ولكنها بالية، فدار إلى اليمين، ثم إلى اليسار ليرينا بحركة مضيفة السفينة المتوهجة تحت لمعانها المُكرمَل. تحركت الجماعة. قدّمنا، طاليلو وأنا، مساعدتنا للسيدات في اللحظة التي وضعن أقدامهن على السلم العابر باتجاه السفينة، الأمر الذي أدى بأزواجهن إلى اقتفاء آثارهن. بدوره تقدّم فولدراغار قائلا

بأنه يريد القيام ببعض التحريات البسيطة داخل سفينته، فشقّ ممرا بينهن، أو حاول، مزدحما ضيوفه بلا إحراج. واصلنا، طاليلو وأنا، تقديم مساعداتنا، غير مفرقين بين النساء والرجال، وكان طاليلو يفوقني في المجاملة والتعليقات الودية. سبق أن لاحظت ذلك، إنه يرافق كل حركة إعانة بغَمَزات من جفونه وابتسامات تواطئية خفيفة، مؤثرة من فرط اللطف. بغتة، أيقظ في نفسي كل هذا اللطف رغبات صداقة نسيتها منذ زمن بعيد. يا له من شجاع مزيف ! في لحظة ما، ظهر رئيس السفينة فوق مركز قيادته، ابتسامته معلقة على طرفي شواربه الرمادية الرقيقة، وأخبرنا بإشارات مؤدّبة أنّ السفينة امتلأت ولا يمكنها أخذ مزيد من المسافرين، فبقينا على رصيف الركوب، طاليلو، امرأة شابة وأنا. نعم بقينا على رصيف الركوب. بنظرة واحدة، تابعنا «الفولدراغار» وهو يضرب المياه بمروحته، ليعكّر صفاء تلك المرآة الراكدة، وبدأ ينفصل عن الرصيف. إنّ أفضل ما ارتأى صديقي فعله أنْ ينفجر بضحك خشن مثله. من جهتي فكّرت أنه ليس أفضل مما فعل في مثل هذا الموقف. وفيما كانَت السفينةُ تغادر ميناء الترفيه بعد مناورتين أو ثلاثة، غمغم طاليلو بعد ذلك في ذقنه المزدوج : «في نهاية المطاف، أفَضِّل هذا».

لا يسقط الليل على الجزيرة، بل يطلع، ينفتح، في غزوة شفافة، أشبه بفجر، تملأه نفحات هوائية مجهولة المصدر دون أن تقلل من تدفق ذلك الاخضرار الجنوني. يُخيّم هدوء ساكن على الأعشاب الأرضية والنباتات والأزهار. ومثله، تفعل الغابة الصغيرة المحيطة حيث يقوم حضور غير مرئي بحراسة تلك السكينة. من المكان الذي ننتظر أن تتسرّب منه الضوضاء. ربما ينبغي الذهاب إلى هناك للرؤية بالعين المجرّدة. وحدها الأشجار الكبرى تحلم بصوت مرتفع، فوقها سعير الغسق المَصْقوع، وتحتها البحر، ليس قريبا جدا أبدا، وفي مكان ما طائر السُبَد – صرخة واحدة لعزلة بأكملها. كل شيء هنا، ولكن العالم ينكمش على نفسه ؛ لقد انكمش على نفسه، وقد انقضّ علينا الصمت بلطف هامة في الطاولة نفسها التي تعشينا عليها وحيث نتأخّر الآن. لم يتجرأ أحد على تعكير تدفق السكون. نوجد هنا، مبهورين، مسحورين، طاليلو بنظرته الفارغة، مثل صديقته «روكا» الجالسة إلى جانبه، ورفيقتنا في العبور وهي تقابلني، واسمها «آييل»، ثمّ زوج شاب، وأخيرا أنا، أنا الذي أصغي بتركيز كبير. أشياء كثيرة تتدفّق إلى غاية هذا المنبسط، هذا المنجم النباتي الفاغر حيث غُرسَت طاولتنا، بشكل دائم إن لم أخطئ، ومعها صمت كثير أيضا، صمت مهيمن بحيث لا نصغي إلا

له، وليست أصوات الظلال، وليس لنا من حلّ آخر، أنا أكثر من هؤلاء الناس، غارقا في أفكاري أكثر منهم، أتذكّر يومي هذا وكيف بدأ – بفشل، بما بدا أنه كذلك في البداية، والمفارقة أنه لم يكن كذلك. فكّرت أيضا، فكّرت دوما، مثل هذا الصباح هناك عند الإركاب : «لا، هذا غير ممكن». أفكّر مثلما فكرت حينذاك : «أكيد أنهم فكروا في تنظيم رحلتين. لننتظر، قد لا يطول الأمر كثيرا». وطاليلو الذي صرخ في اللحظة التي أدركت حقيقة الوضع، فهمت أنّ لا شيء من هذا قد تمّ الاتفاق حوله بينهم : «اللعنة ! توجد سفينتي ! سيكون لكم مكان. أزيَد مما تريدون ! أعدكم أنّ بإمكانكم تمديد أصابع أقدامكم». طاليلو الذي يحثنا بنداءاته : «تعالوا ! تعالوا !»، ويتقدّمنا، ونحن، المرأة الشابة وأنا، نمشي على خطاه. لا كلمة، ولا أيّ إيحاء لأولئك الذين غادرونا، ولا إلى كيفية تعاملهم معنا. لم أجد تفسيرا لكل هذا، وبدا أنّ طاليلو، يظهر ذلك على سحنته، لن يتحدّث في الموضوع تحت أي عذر : ليقول ماذا في نهاية المطاف، وعوض أن أعود إلى الفندق، بقيت. بقيت فقط لأرى ماذا سيَحدث بَعد ذلك، كانت قصة غريبة فعلا. كان طاليلو يتحدّث دون أن يلتفت إلينا، وكان صوته تارة كالنباح وتارة كالنعيق، على حسب مخارج الأصوات : «ستَرون، سنكون نحن الملوك. وتوجد ملكة أيضا». وعند هذه الكلمات الأخيرة، أدار نحو رفيقتنا وجه قمر متبجّح. نمشي على خطاه، نتبعه إلى أن أرانا مركبة بعري فاضح، راسية في زاوية، وهي بوجه من الوجوه تشبه صاحبها، وهذا لم يمنع من دخول الفرحة إلى

نفسي. قفزَت المرأة الشابة بخفة داخل المركبة، ومثلها فعلت، سقطت بدوري فوق الخشبة فألقيت نظرة إلى المياه الراكدة كما لو أنّ شفافيتها يمكن أن تحمينا من خطر ما، ولكنها مياه بريئة تنام هناك. وبعد ذلك جاء طاليلو، بحركات مستقيمة، واثقا من تحركاته بحيث بدا كما لو أنه لا يزن أكثر من عملاق من الريش. ومباشرة، جذَب بحركة حادة حبل المحرّك المعلّق جانبا. ارتعدَت المركبة، حرنَت ودارَت فجأة، تدفعها نيران تدفق رشّة. أحسَست لحظتها بأنني أبحر داخل حوض غرفة حمام.

وصلنا إلى عرض البحر في وقت قصير جدا، قاطعين مسافة محترمة. المحيط نائم، يهدهده تنفسه، تتخلله ارتعاشات خفيفة. هناك في الأفق البعيد، كانت شمس غاضبة تهجم على درع النور دون أن تخترقه. بين الفينة والأخرى، كانت عيون برماد لبني تتسرّب من تحت وتلقي علينا نظرات اختلاس. نبحر، يعلن عن قدومنا هدير المحرّك، بل يفضح وجودنا في الفيافي البحرية الممتدة أمامنا. بقيت عنايتي طول الوقت مثبتة على المدينة التي انتشرت عند لحظة الانطلاق عبر ألعاب الأرغن الداكنة، قبل أن ترتخي شيئا فشيئا وتتراجع، لتفقد وزنها وكثافتها، ثمّ تتحوّل إلى قصر ضباب وبدأت تشحب. بعد دقائق إضافية، بقي هذا الدخان على سطح الأمواج، وبعد ذلك تبخّر، ومعه تبخّرت الأرض أيضا. في اللحظة نفسها، اكتست راحة رائعة الأجواء والمياه، شيء كان ينقصني وفاجأني. خلسة سألت الفضاء والسراب الذي سرّبه هذا اليوم العظيم. أحسَست بنفسي حرا كالفضاء، كما اليوم الذي نذهب إليه.

كان طاليلو واقفا خلف مقبض الدفّة، فقدّم رأسا حوّلته الجفون المغضّنة إلى قناع أسيوي. كم وقتا قضيناه في الإبحار : أجهل ذلك، لقد تركت ساعتي اليدوية في الفندق، لم أشأ إثقال نفسي بقيد في معصمي. لا يعين الوقت في شيء في يوم مماثل. زادت يقظة متواصلة من حدّة نظرات طاليلو، سجلت ذلك، وأسجّله الآن أحسن بعدما ثبّتَ بصره عليّ. كما أدركت الاهتمام الذي يكنّه لي، فبدأت بدوري أراقب قائد السفينة. اكتفى برفع ذراع كجواب، فقط ؛ لم يتلفظ بكلمة. ثمّ فهمت أنه يشير إلى عرض البحر. أدرت بصري نحو الأمام : مياه ومياه، لا أرى شيئا آخر. التفتّ إليه، ألحّ، دائما بذراعه ؛ هناك. من جديد، دقّقت النظر جيدا، فأدركت قصده، أو هكذا اعتقدت : بعيدا في الفيافي الممتدّة المضبّبة بدت لي قملة بيضاء تغطس وتطفو. الظاهر أنّ طاليلو، بسحنته الشرسة الجامدة، يريد أن يشير لي إلى تلك القملة البيضاء، تلك القشّة. المرأة الشابة هي أيضا لا يغادر بصرها ذلك الشيء، كانت منتصبة، تشدّ بيديها الجوانب العريضة لقبعتها الشمسية، وفستانها يصطفق حول ساقيها. فلم تتأخر عن كسر مراقبتها الصامتة لتطلق فوق رأسي، عبر الريح : «إنّهم هُم !» هُم ؟ بدا عليها أنها أكّدت خبرا كان طاليلو على دراية به، لا نعرف كيف. هي وهو يتفاهمان مثل الناس الذين يتكلمون لغة واحدة : بنصف كلمات. لا يمكنني القول كيف كانت سحنتي آنئذ ولكن طاليلو لم ينتظر ليصرخ باتجاهي جملة لم توصل لي الريح منها إلا شذرات : «... أصدقاء.... دراغار... في ورطة..». ماذا،

هذه اللطخة التي تطفو بعيدا ، هذه الطوّافة ! هذا الشيء سفينة الرئيس المتبجّح في بدلته البيضاء ومزهوا بشواربيه الرقيقة. مُضيفنا ! إذا كنا نقصد التقدّم، فإنّ الفولدراغار لا تتقدّم ولو قيد أنملة. ربّما كانت السفينة معطّلة. كان لرفيقيّ عيون صقر. هذه القشّة التائهة وسط الأمواج، لم أكن أبدا لأتعرّف على الباخرة المهيبة التي كانت محل إعجابي قبل ساعة (أو ساعتين ؟) فقط. انقضّت سفينتنا الرديئة عليها، تزحلقت بأسرع مما تقدر، ليست سرعة كبيرة، ولكنها تسير دون تردّد ، دون إي اعتبار لوضعها. استرجع طاليلو بشاشته السابقة، سحنته السمينة (ربّما انسجمت معها ذات يوم). تبقى غامضة حتى في حالتها المسترخية : نتساءل لماذا ، كانت تبدو مثيرة للسخرية. وخلف ظهري، دون كلل، واصلت المرأة الشابة مراقبة المحيط. بدوري انشغلت إلى حدّ الدوران بتأمل الطبقة المائية الثقيلة المتلألئة التي تزيد تحفرا وتموّجا كلما أطلتُ فيها النظر. تحلق فوقنا طيور بحرية، وتطلق فوق رؤوسنا زقزقة حادة تنتهي بضحكات ساخرة. أظنّ أنها خطّافات البحر. مهما كانت سرعتنا متواضعة، فإنها أوصلتنا في الأخير إلى قرب الفولدراغار التي أضحَت سفينة عادية في نظري بعد أن كانت تحفة تثير الإعجاب. وها هي الآن تتراقص بلين في مكانها ، صامتة، ساكنة في موضعها. بمناورة حاذقة، أرسى طاليلو مركبه بقرب السفينة بلا أدنى اهتزاز : إنها فن بالنظر إلى مُرفئتنا المتهرّئة. انطلقت من فوق الفولدراغار صيحات إغاثة متصنّعة وتصفيقات ترحيب ليست أقل تصنعا. غرق الناجون

في مزاحهم. ولم يمنع هذا من أن تعبر تحركاتهم الصاخبة عن ارتياح ظاهر. وحده رئيس السفينة لم يظهر حماس الانتصار. كان ساخطا، حزينا، غير راضٍ عن نفسه، برغم تلك المحاولة لإظهار ذلك بسحنة تريد إظهارً العكس تماما. مهما يكن من أمر، فإنّ وجهه الناضج المسطر بتلك الشوارب الرمادية لا يعبّر عن شيء غير هذا. أين هو ذلك الرجل الذي كان شغله الشاغل قبل قليل إثارة إعجاب الضيوف ؟ عندما رآنا نصعد إلى سفينته، رفع ذراعيه ثمّ تركهما تسقطان. سأل طاليلو :

«ماذا حدث لكم ؟»

بدأ فولداغار يهزّ رأسه هذه المرّة كما لو أنه أراد أن يُسقط أفكارا جدّ ناضجة، ولكن لا شيء سقط. أطلق غمغمة، كل ما جاء على لسانه : «تعطّل. تعطّل».

– تعطّل جاف ؟

نظر فولدراغار إلى طاليلو بنوع من الاندهاش في العينين : «تعطّل جاف. كيف ذلك ؟»

– «تعطّل بنزين !

– آه ! نعم ! آه !... لا، لا ! ملأت الخزان قبل مغادرة الميناء.

– ماذا يمكن أن يكون إذا ؟

– اووو... الله أعلم».

اووو... الله أعلم : أرأيت، إنّ الرجل لم يفكر حتى في إلقاء نظرة على محركه ؛ خوفا من تلطيخ يديه، أو وضع بذلته البيضاء في خطر، لم أندهش. سألت : «هل يمكن إلقاء نظرة على المحرّك ؟

– وكيف لا !»

فرِحَ لأنّ شخصا سيقوم بالمهمة، فتح مباشرة الباب الأرضي ليكشف لنا الحفرة التي تخفي المذنب. بحثنا داخلها، طاليلو وأنا، دون أن نستطيع القول عما نبحث. لمسْت بأصابعي أدوات متعددة، لا تزال كلها ساخنة، ولكنها غير حارقة ؛ هذا أفضل. تأكّدت من تواصل التيار في الشموع، إنّ نظام الإشعال هو المتسبب الرئيسي في التعطّلات. بدا لي هذا في وضعية جيدة : مرّرت بعد ذلك إلى بُرغي تنظيم دوران المحرك. هذا البرغي طالما يتسبب هو الآخر في إحداث التعطّل. قاوم ذلك البرغي الذي حاولت تحريكه بالأصابع، سوف لن يتزعزع من مكانه دون الاستعانة بمفكّ البراغي. حركة باتجاه فولدراغار، أدرك قصدي، فمدّ لي واحدا بعد أن بحث داخل درج. أرخيت البرغي بدورات عديدة، ثمّ طلبت منه إشعال المحرّك. أسرع إلى مفتاح الاتصال. سعلت الآلة في عرينها، ولكنها لم تزد أكثر. طلبت من فولدراغار تكرار المحاولة. حينئذ زأر المحرك وانفجر في وجهي بعنف مرعب بحيث ارتميت على الأرضية الخشبية بردّ فعل غريزي. واصل زئيره بهدير بشع، فيما حاولت استرجاع صفاء ذهني. تركته مشتعلا لبعض ثوانٍ. ثمّ رحت أردّ البرغي

إلى مكانه بهدوء. تناقص هدير المحرك شيئا فشيئا إلى أنّ أعلنَت طقطقات الاختناق الكلي. فأرخيت البرغي من جديد بربع دورة، ثمّ ضبطت برغي مِصدَم المكبس، وأصغيت. يدور المحرّك بانتظام لطيف. بعد هذا، طلب منّي فولدراغار البقاء في سفينته. شرحت له أنه يصعب عليّ فراق أصدقائي، وأنني أفضل مواصلة سفري إلى الجزر مثلما بدأته، وعلى كل حال سوف لن يتعطّل المحرك مرة أخرى، إلخ. فوافقني عند كل كلمة كنتُ أتلفظ بها. لا زلت أعتقد أننا نذهَب عنده وإن بوسائلنا الخاصة. في فكرتي، كنت دائما ضيفه، وليس ضيف طاليلو، -طاليلو الذي لم يرفع عني عينيه، لاحظت ذلك حينما التفتت إليه في لحظة ما، فأرسل إليّ، ورأسه تنحني قليلا على كتفه الأيمن، ابتسامة مرفقة بنظرة موافقة واعتراف، بل وأكاد أقول بوُدّ أيضا-، لشيء غامض نوعا ما.

انعكاس، لمعان على مدى البصر، ارتعاش، ألعاب ضوئية، شقّت مركبتنا طريقها عبر عزلة باهرة، يومٌ أهمِل لهذيانه، بشحوب حارق، مخرّق بحبات برد من حمم أكثر شحوبا. بعد أن ذهب الفولدراغار استرجعنا أماكننا، أنا جالس في المقعد نفسه، والمرأة الشابة واقفة ولكنها أسندت وركيها إلى جانب المركبة. بدت من جديد منبهرة بتموّج البحر. لا يوجد شيء يثير الانتباه حيثما تمدّ بصرَك، بل وأبعد. أعطيتُ ظهري لطاليلو الذي يقف خلف مقبض القيادة مثل السابق. لا تتوقف الشمس عن إرسال حرارتها علينا، ويكاد لهيبُها يلحَس وجوهَنا. مثل السابق. كل هذا الامتداد لنا، أو أنه سيكون

كذلك، لولا طقطقات محركنا الذي يسلبنا إياها. لو نستطيع إسكات هذا الهدير البئيس ! وحدها شبكة الصيد السوداء، غير قابلة للاحتراق، تتملّص من هذه النار الزاحفة بلا شفقة، والتي تحتل الوسط حيثما ابتعدنا. أحتمي **هروب دائم أمام النور، كما لو أنه يستطيع إضاءة الكل بظلامه، الأشياء الميتة كما الأشياء الحيّة** بأفكاري، أسلِّم نفسي إلى سكون المياه... المياه المناسبة... لحُسن الحظ أنّ لا أحد منا أحسّ بوجوب الكلام، فلم نتبادل ولو كلمة. بدأت ريح هوجاء تصفّر فأصبح كل حديث بيننا مستحيلا. من ثانية إلى أخرى، بدأت نفس الأفكار، المضافة إلى شخير المحرّك الرتيب، وخرير المياه التي تشقها المركبة، تفصلني عن الواقع لتكشف لي آخر، حيث ستحدث فيه الأعاجيب – نعم، الأعاجيب، ليس أقل من هذا. قدماها رقيقتان، مرتجفتان، ببياض مورّد، – قدما المرأة الشابة. أراقبهما، وأنا مسكون بالرؤى التي تولّدَت من إفراط هذا اليوم الذي يمضي في الفراغ. أتأملهما، إنهما ملفوفان داخل صندل بنعل خشبي. رؤى هي بمثابة ظلال. وداخ المحيط بدوره، ملتهبا، مشلولا، من هذه الرؤى التي هي بمثابة ظلال فيما كُنت –أنا، أو شخص آخر– أنظر إلى قدميها. شخص آخر. حينئذ أرفع ببطء، أرفع رأسي بجهد كبير وأرى الضفاف الكبرى لتلك القبعة الشمسية المصنوعة من القشّ تسقط على عينيها كشاشة واقية، قسمات مجهولة. كان ينبغي الاعتناء بها منذ الدقائق الأولى في البرية، ولم تفعل. مع أنّ هذا الوجه لم يختفِ إلا نصفُه ؛ في الأسفل، احمرّت الشفتان والذقن من

فرط حرارة الشمس. شفتان ممتلئتان ومنفرجتان في آن واحد، لطيفتان مثل ذقن خزامي. وعليهما يطفو مظهر ابتسامة. أمّا جميع الأشياء الأخرى، فبقيَت في الجهة الأخرى للستار. ثمّ الاندهاش – اندهاشك، اندهاشي– حينما تُمرَّر الذراع فوق المركبة، وتلمس المياه، ثمّ بيد مبللة تلامس القدمين. وغياب اندهاشك حينما تسحب القدمَين من الصندل بلا تردد وتقدمهما لك، فتكرّر حركتك لتبلّل لها قدما بعد أخرى بمياه هذه البحار الباردة. واندهاشك بتلقي قسطك من البرودة المنعشة. وها قد بادرت إلى غسل قدميها، ولمسهما، تحت ذلك البياض اللبني، الحريري، وتقوّساتهما، القدمان، الأصابع الصغيرة، ودائما الاندهاش، الذهول، ولكن دون إدهاش فعلي. مبرّر إضافي لك كي ترفع رأسك، تبحث عن نظرة، أو لا تدري ماذا، وفي هذه اللحظة، تسقط عليك الابتسامة : نعم، الابتسامة، وهج العينين الزبرجديتين اللتين تظهران عبر أجنحة القبعة العريضة. إنك لا تخطئ، تخيفانك. وأنتَ تتساءَل : «ما هو الشيء الذي يخيفني ؟ ولماذا تصرّفت بهذه الطريقة ؟» لمْ يَحدث شيء، أنت ترى كيف بقينا غريبين الواحد اتجاه الآخر، وأننا أصبحنا كذلك الآن، بعد الذي حدث، بعد أن انتهى، هي وأنا في هذه المركبة السائرة نحو هدف مجهول، لم نصبح غرباء، بقينا كذلك. وإلى الأبد.

استأنف طاليلو خيط خطابه. تبخّر سحر الليل المخيف وترك مكانه لشعور ضياع غير قابل للترميم، ولعزلة خانقة. كان الكلام يتدفق من منبعه، غير قابل للتعرّف، ليس ذلك الصوت الذي يتغيّر ويتلعثم عند كل كلمة، بل إنّ منسوبه منتظم، والنبرات عذبة تقريبا. يقصد طاليلو إجبار تعاطفنا معه، واشتراط تفهمنا أو تسامحنا، وذلك لسبب غير محدّد ؛ وسوف لن يتراجع. ماذا يريد ؟ الممثّل ! أصغي جيدا. ما هي قضية الدولة التي سيخبرنا بها كي يتّخذ تلك الهيئة الماكرة وتوزيع تلك الابتسامة بتواضعها المتوسّل ؟ بدأت أعرف هذا الماكر قليلا. رجل يدرس أفعاله باحتراس ! هذه صفته. بتلك الابتسامة المهداة إلينا والتي تحرّك عينيه، وتستدير ذقنه أكثر، ربّما ليست إلا دعابة يحتفظ بها لنا. يجب أن نتوقع منه أيّ شيء، وأنتظر مثل هذه المفاجأة ؛ لقد سبق أن قال كل واحد منا ما كان يريد قوله في ذلك النقاش المحموم الذي سبق. تكلّمنا –تكلمت– عن الحفرة والبشاعة التي تحميها، أجهل كيف انعطفت المحادثة حول هذا الموضوع ؛ من تلقاء نفسها. ثمّ امتدّت، وتوسّعت بلا حقّ، لم تجد في داخلها قوة للتوقف. أخيرا، انهزمْت وسكتتُ.

والآن يصرّح لنا طاليلو : «يوجد من لا يعرف شيئا، مثلي، ويلزم حدوده، سعيدا بحظه. يوجد من لا يعرف شيئا، مثل البعض، ولكنهم يُصرّون على المعرفة بأيّ ثمن، يبحثون، وماذا يحدث : لا تكشف بحوثهم في نهاية المطاف إلا عن... ثقتهم بأنفسهم، ثقة كبيرة. أكيد أنه يحق لهم التبجح بأنهم يعرفون كل شيء، بمجرد أن يعرفوا شيئا قليلا عن أي شيء. ومع ذلك، وبم أنّ لا أحد يعرف عما يتكلمون، يحدث لهم أن يتكلموا عنه، ولا أحد يتكلم عنه..».

أسئلة بلا جواب، أجوبة لا تجيب عن أي سؤال. جُمل، جُمل... أجتهد لسماع هذا التلفيظ. فجأة، يجتاحني تعب كبير. سواء احتوت هذه الأقوال على غرابة فكرية أو مزحة، فهي لا تمسّني، ولا تثير اهتمامي. فجأة، لم تعد لديّ إلا رغبة وحيدة، أنْ أذهب للنوم. يكون الوقت متأخرا جدا. لم تعد ساعتي بيدي، ولكني أعرف أنّ جزءا من الليل، بل جزءا كبيرا، قد مرّ. حاولت النهوض، بدا لي أنني أحاول رَفع جثتي الخاصة، وكنت عاجزا على ذلك. حينئذ استسلمت ؛ فبقيت لاصقا إلى المقعد الأبيض، وكانت البقية واعدة : ماذا يمكنني أن أفعل بكل ذلك الرصاص في أطرافي ؟ سأتعلّم على الأقل، أنا الذي، بدا لي، أريد أن أتعلم. تأخرَت تلك المعرفة عن المجيء ؛ وبعد ذلك جاءت.

«حينما نفهم أنّ للسعادة ثمنا، سنكون قد فهمنا كل شيء. مع أنّ الأشياء ليسَت بهذه البساطة. وإذا أردتم استعمال ألفاظ

أكثر دقة، أقول : إنّ سعادة شخص يضمنها ويخلّصها شخص آخر. هكذا حينما يتلقى شخص ما حصّته من الامتيازات في الوجود، يكون شخص آخر قد دفع الثمن من أجل ذلك، ومن واجبه ومهمته الإجابة عن هذا الانتظار، ليحقّق عملا يدخل ضمن المنفعة العامة. ومن بين البشر، يوجد من أوكلت إليهم مهمة ضمان سعادة أمثالهم، وتوفيرهم لهم حياة ليس فيها شقاء ولا ضجر، حياة تصبح مثالا يُحتَذى به، ويمكن أن يكون هذا الشخص هو أنت، أنا، أو أي شخص آخر... لنتفاهم جيدا : لا يتعلق الأمر بنظرية استغلال الإنسان للإنسان الضبابية ! إنّ المقابل، لأنه يوجد مقابل، يكون كالتالي : تعود للمحظوظين مهمة جعل السعادة هدف مجتمعنا. من الضروري أنْ يكون في هذه الحياة الدنيا مكان يسود فيه السلم والعدالة والحرية، ويشكل مثالا يتبعه الآخرون».

استيقظت فجأة وانفجرت : «مثالٌ يُحتذى به! ليس أقل من هذا ! ولا تقول شيئا عنه أبدا ! لا أحد يقول عنه شيئا. وبما أنّ الوضع على هذا الشكل...

– هل هو ضروري فِعْلا ؟

– تقريبا ! لكي نحسن التصرف. زيادة على أنّ هذا واضح كل الوضوح.

– أراك تنطلق انطلاقة سيئة. خذ حذرك جيدا».

أتفرّس طاليلو بعناية : ماذا، يهدّدني الآن. امتزج تعبيره بالضحك والندم، فأدخل ذقنه في رقبته كما في كومة زبدة.

لم تغادر الابتسامة عينيه المقلصتين، أدركت ذلك في الفوضى التي تملّكتني : بدأ حسّ السخرية يتخلى عني. أكيد أنني بحاجة ماسة إلى النوم. إنّ الرغبة والإرادة المقصودة في دفع المزحة إلى أقصاها، إلى الإثارة، ظاهرتان على هذا الوجه المتفتح إلى حدّ الوقاحة. وأنا الذي صدّقْت كلّ هذا الكلام ! سأحتفظ بشيء على الأقل : إنّ طاليلو هو أول شخص من جرفير أسمعه يتحدّث بهذه الطريقة، في حقيقة الأمر، إنه أول شخص يقبل بكل سهولة أن يتحدّث، وراح إلى حدّ التعبير عن رأي، حتى وإن لم يملك هذا الرأي إلا مظهره الخادع. بالضبط : يعبّر جيدا عما يريد أن يقول لأنه يقول عكس ما يريد. فلم أحاول الإمساك بالضحكة التي فلتت مني. ومع ذلك ضحكت، فامتلكني تفكير بشع –لماذا في هذه اللحظة بالذات ؟ – تفكير الوعي المفاجئ بعزلتي. أنْ أكون منقطعا عن العالم إلى هذا الحدّ ! لا يمكن لأحد، باستثناء طاليلو (وأصدقائه)، أنْ يقول أين أوجد. أنا بنفسي أجهل ذلك. انتابني ذهول شديد، فقدت فجأة مفهوم هويتي الخاصة، فكان كل ما يحيط بي يُغرّبني. كيف قبلت القيام بهذا السفر إلى الجزر بلا أدنى تردّد، استجابة لدعوة بسيطة جاءتني من مجهول، لينتهي بي المطاف، يضاف إلى المغامرة، إلى ما لم يكن متوقعا أبدا ؟ لماذا رميت بنفسي على رؤوس هؤلاء الناس ؟ صحيح أنه لم يحدث شيء يجعلني أندم على سفري، حتى وإن لا يمكن أن نغيّر شيئا منه. لا، لم يحدث لي مكروه، ولكن أحداثا تقع أوّلا، بلا رابط بينها، خالية من النوايا، ثمّ تبرز روابط، وتُكتشَف النوايا.

عندئذ انحطّت يد على يدي، كانت الحركة طبيعية، بسيطة، واليد تنحط خفيفة منعشة، إحساس بيد فعلية، لتعري فجأة النار التي تحترق تحت بشرتي، لتكون لها سيولة مياه المحيط : مياه غمرتني بدوري، كهدية مغربة. بدأت هذه اليد تذوب وتجتاحني ببطء، ولم أجد في هذا شيئا يُدهشني. ألقيت نظرة فوقها : لا تكاد تتميّز عن يدي في تلك الظلمة الشفافة. بحثَت عينايّ عن عينيّ المرأة الشابة. كانت غريبة، وستبقى كذلك. كان الذراع ممددا عبر الطاولة، اليد موضوعة دوما فوق يدي، وتريد الآن طمأنتي بالنظر. ولكنها كانت تشبه كائنا خرافيا تحت قناعها الليلي، أكثر غرابة من هذا البحري تحت قناعه القشّي، وستبقى كذلك. «وبلا اسم، وإن كان لها اسم، فيكون مفقودا، غير قابل للنطق، مرميا بداخل خزانة خلفية هي بدورها عرضة للنسيان». ولكنها أعلنت أنها تسمى «آييل». انتابتني رجفة. ليست برودة المحيط، تلك الذبذبات، ولا تلك الآتية من الليل، من النباتات الوفرة الصماء، كل هذه البرودة التي تغرقنا : إنها من طينة أخرى. لم تخن يدي اضطرابي بعد، إنها هادئة، تطلّب الحدس المعتّم للكائن الخرافي كي يدرك الحمّى التي تسري بداخلي خلسة. فبدأ الكائن الخرافي يطبطب على أصابعي مثلما نداعب حيوانا، الشيء الذي لم يفعله أحد معي. هذا هو، مثلما نداعب حيوانا، وربّما حيوان نحسّ فيه خطورة ما. من جديد، هزّتني رجفة مماثلة، والآن صوت أيضا. هل نداه أو حثّه الوحش العجيب الودود، أو أنه بحث عني ببساطة منذ وصولي إلى الجزيرة فوجدني أخيرا : صوت،

كلام لا يحلم، وإنما واجهني بعنجهية، طلب مني الحساب، أين رميت نفسك ؟ لأيّ غَرَض ؟ ماذا تأمل أنْ تكتشفه ؟ ومع هذا، فأنت دائم الاستعداد لكشف حكاية الحفرة...

كما لو أنّ الصدفة قادتني إلى حيث أوجد في هذه الساعة وبطلب مني ولترضيني. في هذه الظروف اشرحوا لي لماذا لم أجد مكانا في السفينة التي من المفروض أن أكون، باعتباري ضيفا، أول الراكبين، فتركتني على الرصيف. وبقيت مع ذلك الذي يطارده سوء الحظ مثلي، والذي كان مدعواً فنقل إليّ الدعوة، وهو الآن يستقبلني في منزله، ولم يكن مصغيا إلا لروائح الليل –وكدت أنسى هذه المرأة الشابة المجبرة على اقتسام مصيرنا، والتي لم أفكّر بعد في النظر إليها. وطاليلو الذي اتضح أنه يملك مركبة في الميناء، أن تكون جاهزة في نفس المكان، ليضعها تحت تصرفنا بعفوية وسخاء، وأعترف أنني تنفسّت الصعداء في تلك اللحظة دون أن أجد الأمر غريبا نوعا ما : «لقد نجونا، فيمكننا الالتحاق بالآخرين، فولدراغار والجماعة». في تلك اللحظة التي لم يحدث فيها شيء بعد، رغم أنه ليس بإمكاننا تغيير شيء. نعم، اشرحوا لي هذا الأمر.

امتداد لا يذوب في الليل الصيفي، يزيد شفافية كلما تقدّمت الساعة، ولا ينفصل عنه أيضا، ولكنه يبقى معلقا. البحر : بارد، ساكت، جامد، نشعر به على بعد خطوات فقط، يحط خرطومه على الرمل، يمسك تنفسه، أو أنه لا يمسكه أصلا،

يتنفس من الداخل، بارد، ساكت، جامد، شبح بحر، البلد الآخر لجرفير. ثمّ وفي قلب تلك اليقظة، تنطلق ذبذبات، خفقات صمّاء، دقات ساعة تأتي من بعيد، لا تتوقف، تعود بعيدا. ومع أن لا شيء يتحرك، لا المياه ولا الهواء – لقد غادرناهم : طاليلو، روكة، الآخرون ؛ افترقت الجماعة، فذهبنا معا، آييل وأنا ؛ ليس أكيد أن يكون أحد منا قد فكر في الذهاب للنوم، فلا يمكن الذهاب للنوم في مثل هذه الليلة ؛ فذهبنا، آييل وأنا. ولكن هذا الشعور يتبخّر بمجرّد الإحساس أني قد أدركت ماذا يحدث. وبعد ذلك، تعود تلك الذبذبات، تستأنف تحليقها ؛ ومن جديد، أصغي بكامل طاقة سمعي. كما لو أنها لم تكن موجودة قبل قليل – وهل هي موجودة فعلا ؟- فألاحظ خيطا رقيقا، بسواد كثيف، ممددا فوق شحوب المياه التي تنقسم إلى حقلين. فبدأت ترتسم في الأفق كتل سوداء، مشعثة، فوق سطوع المياه الشاحبة بلونها القمري. شيئا فشيئا، تعرّفت على الجزر، -جزيرات. حينئذ انطلقت أنات غاضبة وسط تلك العتمة البيضاء ومزّقت رطوبتها، أنات عصية الاحتمال، عنيدة، حتمية. أحطت آييل بذراعيّ، ضممتها إلى صدري. لم تعد ذلك الشبح الضامر المنتصب أمامي، لم أعد أتنزّه بكائني الخرافي وسط هذه الليلة التي لا يسود فيها الليل. همسَت : «خطّاف البحر. إنّها هي».

واصلتُ ذهنيا : «الطائر المجنون». دون وعي مني، بدأت أهدهد آييل، ونحن واقفان على الرمل مثلما كنا، مقابل هذا الواقع البحيري العصي الاقتراب، أهدهدها، ألفّ بذراعيّ

جسدها اللطيف والدافئ، ثمّ رويدا رويدا تغمرني حرارته لينتهي المطاف بها إلى الالتباس مع حرارة جسدي، ومن جديد أدرك الذبذبات، أو بالأحرى الخفقات التي رجّتني قبل قليل : كما لو أنها تصدر منها ؛ منها ومن هذه الأرض، أرض هي مياه أكثر منها أرض، وصوتي يقول بداخلي : «ستفتحين لي الأبواب، آييل ؛ ستتعرفين عليّ وستستقبلاني أنتما الاثنتان معا، آييل ؛ أن أكون لكِ، آييل، أن أكون لكما، هي وأنتِ، إني آتٍ. انتظراني».

استيقظتُ، وما كدت أفعل حتى رغبت في الذهاب، أشعلَت الشمسُ النوافذَ. وبعد ذلك عاد إلى ذهني كل شيء: العبور، الليل فوق الجزيرة، طاليلو، الآخرون، آييل النائمة بقربي. الشيء الذي أبقاني هادئا على السرير، خجلت من نفسي. أظن أنها لم تدرك شيئا من رغباتي في الذهاب – الهرب. كانت تتنفس ببطء، نفَس لا يكاد يُدرَك يحرّك بخفة جناحَي أنفها، إنها نائمة على الجانب، بوجه يتأجج بنار لينة، وجه مطهّر عار. متحرِّر من الانفعالات، والمصالح والانشغالات المضجرة، متحرِّر من الشيء الذي ليس الوجه بحاجة إليه، اختُصرَت تقاسيمه فيما هو جوهري، في جمال الجوهري، هي وجمالها نائمان بمفردهما، أبعد عن أي شيء، عن أية كلمة. بقيت مثلما كنت، جالسا على السرير مفكرا. دون أن تستيقظ، بحثت آييل عن يدي فوجدتها، دسّتها تحت خدها ولم ترخِ شدّها. حينئذ تمدّدتُ، فوضعَت ساقا بين ساقيّ. في الخارجَ، كان النهار قد طلع، والنور المتنامي مع ظهور الشمس، ومن هنا نحسّ بتجديد هذا النهار، بالبراءة، باستبشار الهواء. مزيدا من لحظة صغيرة كهذه، ستكون لحظة عظيمة، وستكتمل سعادتي، سيكون النهار مستقرا لطوال اليوم وسيدوم إلى غاية منتصف الليل.

نَمي آييل، وبداخل أحلامك أطردي الشرّ الذي قد تفكرين فيه عني غدا، أو ربما بدأت تحضِّرين نفسك للتفكير فيه: كي لا يبقى شيء منه عند استيقاظك. لأنّنا نعيش مثلما نستطيع يا آييلتي، نأخذ ما ليس أكيدا عوض ما هو كذلك، لأنه ليس سهلا أن نعيش. إنه ما نتعلّمه شيئا فشيئا وهو كل ما نتعلمه. أنت دافئة، بَشرتك ضد بَشرتي حارقة، على كل حال أنت طيّبة، أدركَ ذلك دون أَن أعرفك جيدا، ساقك على ساقيّ طيّب، بطنك ضد خصري طيّب، نهداك ضد ذراعي طيّبان، وتنفسك على رقبتي ؛ لا، ليس من السهل أن نعيش.

(وسيأتي ذلك بعد وقت، بعد وقت طويل، بعد يومين، ربما بعد ثلاثة أيام، حينما تختم هذه القصة بكلمة نهاية، ولن تكون هناك قصة عندئذ، ستكون الحياة، سيجري كل شيء كما في الحياة، وفي تلك اللحظة، وبصوت هادئ، ستغتال سكينتي:

– «انتظرتك دوما، إيد.»)

تعلّمَت بسرعة قول «إيد» لتعوِّض اسمي «عايد». أردت ذلك، ولكنه سيحدث خارجا من هنا ومن هذه القصة، في زمان لم نتخيله بعد، لا هي ولا أنا، زمان لا ينتظر إلا هذا ليبدأ مساره. في فُتحة صمت هذه اللحظة، أستمع إلى صمت آييل، وأنتظر. انتَهى بي المطاف إلى الانزلاق خارج السرير، حاولت أن لا أوقظها ولا أزعجها، ارتديت ثيابي بصمت، ليس لأنني كنت مستعجلا للنهوض، لديّ الكافي من الوقت أمامي، إننا

على جزيرة ونملك جميعا كل وقتنا. ولكنني أردت الخروج لأرى إلى ماذا يشبه يومنا الأول هذا فوق جزيرة، آييل وأنا. ولماذا لا أفارقها إنْ أردت، وإني أريده، فورا، لأنني أجد الآن أنّ ليلة تكفيني، ليلة كهذه. يجب الإبقاء على مثل هذه الذكريات مكتملة: لكي تعيش بعدنا. إنّ طاليلو مثلما أعرفه سوف لن يرفض إرجاعي إلى جرفير، في هذا الصباح بالذات، سوف لن يطرح عليّ أسئلة ؛ ولا يطلب مني شيئا. التفتت وأنا أرتدي سروالي، لا أكاد أنظر إلى آييل التي تنام دائما، لأنني إذا نظرت إليها، سأكون رجلا ضائعا، أكثر ضياعا مما كنت فيه. لا، ليس هذا بالضبط: سأحسّ بالخجل، وأحسّه برعب، قبل أن تصل تلك اللحظة، الأثر الذي ستتركه في نفسي، كيف يلتصق الحب بالرعب، وهذه الأكذوبة التي تقول بأنّ الحب بدأ وسينتهي به المطاف إلى التشكّل. وبما أننا باشرناه، فلم يبق لي إلا أن أبلي أظافري ضد الجدران. فجأة، سقط ستار أسود من الضباب على عينيّ ولم يبق شيء في هذه الغرفة من النهار الذي يبتسم بكل طراوته في الخارج. عدت إلى الجلوس، بل تمدّدت على السرير إلى جانبها، وسروالي نصف ملبوس، ووضعت يدي ببطء على خدّها المحموم بالنوم، وهي دون أن تستيقظ، دون أن تعرف ماذا كانت تفعل، أخذت يدي مثلما فعلت قبل قليل، وشدّتها بنفسها على خدها ؛ ودون أن تستيقظ دائما، تضغط شفتيها على راحة يدي. ربّما كانت هذه هي الحياة، ها نحن داخل الحياة: سحبت يدي بألطف قوة ممكنة، تركتني آييل أفعل

دون أدنى مقاومة، فلم تنتبه، ولم تخرج من نومها. حان الوقت لمغادرة هذه الغرفة، سأكون أفضل في الخارج.

في الخارج، أصطدم بالنهار، ترف عينايّ، لقد تحسّنت حالتي، أنا في وضع أفضل، الريح والشمس تغسلان الجزيرة بمياه وفرة، ريح قارصة، شمس حارقة، تجرّ كل شيء، تكنس كل شيء، بحيث تنفست الصعداء. وفي تلك اللحظة، رأيت أين أذهب: إلى نفس مكان الأمس، وهذه الليلة، أو بالأحرى هذا الصباح قبل طلوع النهار، هو نفس التوجّه تقريبا، أحسّ به، كل شيء يشير إليه. على كل حال، إذا أردنا اكتشاف المحيط عن قرب، ينبغي أن نسلك هذا الدرب، فيبرز المحيط دون تأخر. الشمس، الريح، والآن المياه، يصعد الفرح، وينتشر كأمواج في جميع الاتجاهات ؛ حولي، فوقي، أمامي. سفينة حمراء بنقاط سوداء، دَعْسوقَة يَحملها البحر كما داخل تجويف يد، تسطر دربها على تلك اليد مصفرة. إنها الشيء الوحيد المتحرك، دون استعجال، بين الجزيرتين، جزيرتنا والجزيرة الأخرى هناك المغطاة بأشجار الصنوبر على شكل مظلة شمسية. يلمع المحيط ويتموّج تحت الريح، وتنطلق الريح بفظاظة، لتعري ظهور تلك السلاحف الموحدة الملساء، هذه الصخور الكبرى القابعة على الشاطئ. ولكن ماذا بعد؟ إني أجهش بالبكاء. لا أعرف ماذا يحدث لي، تخنقني الشهقات، لا أستطيع ردّها. ماذا يجب أنْ أفعل لإيقافها. الريح، الشمس، الريح، والآن الدموع ؛ طيّب، ابكِ يا صغيري.

ربما كان هذا ما أردته، ما كنت تبحث عنه، إيد. لأنك دخلت من جديد إلى الحياة وبسرعة، أو أنك تحسّ أنك تدخلها من جديد، ترجع إليها، وهو أمر صعب. لا ليس هذا ؛ بل قل، سيكون الأمر حقيقة أكثر: تدرك فقط كيف يكون الوضع حينما تُمنَح لك الحياة ثانية بعد حياة كاملة لم تعشها ؛ وهذا مثير لبكاء مرّ، لا يكاد النهار يطلع، وأنت مليء بالندم والحزن والغضب.

(أريده أيضا، آييل، لا تصدقي، أو بالأحرى أردته، هذا الحب: لو كنتِ تستطيعين أن تتصوّري كم أرغب فيه الآن عندما عثرت عليك ؛ لم ألتقِ بكِ هكذا، ولم أعلن عنه هكذا، أريد أن أقول مثلما ستعلنينه لي: «لقد انتظرتك دوما، إيد». وسيحدث كل شيء في مكان آخر، في وقت لم نتصوّره بعد، لا أنت ولا أنا، حياة أخرى تنتظر إشارة ما لتبدأ، والتي سنرى فيها أنفسنا ذات يوم جميل ندخل إليها اليد في اليد دون أن نكون قد أردناها ولا بحثنا عنها ؛ يوم جميل تعصف فيه الريح كما هذا اليوم، وربما كنا داخله ولا نعلم، وأنه اليوم بالذات. لفترة طويلة، كان ممنوعا علينا أن نريد – أو لا نريد– شيئا، مهما كان نوعه، وبعد ذلك يُسمَح لنا به.)

أما في هذه اللحظة، فأنا أستعد للذهاب، مغادرة جرفير بين عشية وضحاها، وآييل فورا، وعدم رؤيتها ثانية بمجرّد ترك هذه الجزيرة خلفي. شيء لا يمكن تجنّبه إنْ كانت لديك حياة خاصة بك، حياة منتظمة، إن كانت لديك أشغال، وماض خاص

بك، ارتباطات في مكان ما، إن لم تكن تشبه هذه الريح. هذه الريح ! جعلَت مني سجينَها، تنتصب أمام طريقي أينما ذهبْت، تحيطني، تحتجزني بين جدرانها المهتاجة، اهتزّت الجزيرة بمدّ أزهارها الكثيف، ونباتاتها الريّانة، وأشجارها التي تنحني إلى غاية مداعبتها مثل شعر طفل. إن للريح زواياها هذا الصباح، ولكنها جفّفت دموعها، والشمس تضحك في العلى، الآن يمكنني الدخول، يكون البيت قد استيقظ. وهي التي أراها آتية، آييل. عبر نفس الدرب، تأتي في فستان قطني صغير بلون أخضر على عمق أبيض، مئزر أو شيء من هذا القبيل، يستوي جيدا على قامتها، ربما ارتدته بالأمس، ولكن بالأمس لم أتعلّم بعد رؤيتها، -مع حقيبة حمام على ذراعها. وصلت عارية تحت مئزرها، وكانت تبدو أكثر عريا هذا الصباح، أكثر مما بدت عليه في أية لحظة منذ لقائنا، بفستان أو بدونه. مرّت بقربي، وفي هذه الدرب الضيق الذي كاد يجبرها على الالتصاق بي، قالت: «سآخذ حماما.» همست هذه الكلمات وهي تخفض عينيها المبتسمتين، عيناها الخضراوان كالزبرجد، ستأخذ حماما في المحيط. سمعتها تضيف: «سوف لن أتأخر. الفطور جاهز تقريبا». فذهبَت، تحمل بصرها الذي يبدو كسِرٍّ يَنتشر حولها على شكل حركات.

«وأنا»، فكّرت. «هل يجب عليّ أخذ حمام أم لا؟» وفكرت أنْ نعم ويجب عليّ أنْ أسرع، ولكن لا يوجد داخل المنزل شيء من أجل هذا، لا توجد الوسائل اللازمة لذلك، فلم يبق لي إلا أن أطلب منشفة من روكا وأذهب إلى البئر المحفورة في حوض

في المنبسط، تقريبا تحت نوافذ المنزل. سأتعَرى هنا، ولن يلاحظ أحد حولي إن كنت عاريا أم لا. جذبت دلاء ماء وصببتها على جسدي، كانت المياه باردة إلى حدّ تشقّق البشرة، وكادت بشرتي تتشقق. اصْطكّت أسناني، وعظامي أيضا، واصلت بحماس، استقيت دلاءً ودلاءً وصببتها على كتفي ورأسي وبطني وحككت جلدي، حككتها براحة يديّ. وصلتْ الرجفات إلى غاية قلبي. أضفت دلوين، وحككت جلدي هذه المرة بالمنشفة الخشنة. تصاعد الفرح، ها هو الآن يعرّف بنفسه، وجاءتني الفكرة، تلك الفكرة التي تأخّرت عن المجيء: «اذهب فورا والتحق بآييل، اركُض. استحِم معها في المحيط، وقل لها بأنك سعيد.» لم أنتظر، انطلقتَ عبر الدرب بأسرع ما استطعت، دعوت الله أن لا تكون قد خرجت من الماء. أدركت أنني أجري إلى ضياعي، إلى المذبحة، وشفقة على نفسي، قلت: «كيف يتسنى لي الاغتسال بماء البئر وأنا على ضفة المحيط! أنا سعيد، وأحبها! صَرخَت من هناك، من وسط الأمواج وهي تراني ألتحق بها بحركات عوم كبيرة: «ماذا تقول؟»

سرّحَت أذنيها، أصبع في كل أذن، أصبع كانت تحرّكه بقوة، وتصرخ:

– «ماذا تقول إيد؟

– أنا سعيد! أحبّك!»

ارتفع القمر بالضبط فوق الغابة التي تتقبّب فوق الجزيرة المقابلة. ومباشرة رمى جسرا بين جزيرتنا وتلك الأخرى هناك، ومباشرة طفق جسر النور ذاك يتلألأ، موضوعا على سطح الماء، سفينة نوح لم نتمكن من انفصال عيوننا عنها. جلسنا، آييل وأنا، منكمشَين بين صخور الغرانيت التي تتدرّج نحو المحيط في شكل قطيع. السماء صافية، لا تزال بيضاء، تميل الآن إلى الزرقة الشفافة، ولكنها ستسترجع صفاءها وستبقى كذلك إلى غاية الصبح. وسقطت البرودة فجأة مع الليل، فاضطرت آييل إلى ارتداء سترتي. الجوّ هادئ، لا وجود للريح، إنها تنام الآن، تستريح من رقصتها الصباحية الجنونية. لا تغادر أبصارُنا المنبهرة ذلك الجسر الضوئي الممدّد على هذه المياه النائمة هي الأخرى وتساءلت عما يمكن اكتشافه في طرفه إنْ نَحن عبَرناه. جاءني الردّ عفويا: «سأجدها تنتظرُني، تلك التي تنكمش إلى جانبي. تنتظرني وتبتسم مثلما لم أرَ أحدا يفعله معي قبلها، ناشرة كامل فجر عينيها أفكارا وأحلاما». مرّت بقربنا رائحة الليلك، تكلم شخص بصوت خفيض، بالقرب منا أو بعيدا عنا. هنا حيث أتواجد، ينتابني هذا الشعور الآن: شخص يتكلم، قريبا أو بعيدا، لست أدري. إنه المحيط، يطلب ما لا يجب المطالبة به، أسئلة مجترة كنت أحملها بداخلي (هل

تسمعينها آييل؟). يلحّ على طرحها مع أنّ وقت طرحها لم يحن بعد، خاصة في لحظة كهذه، حيث أواجه آييل وأستمع إليها وهي تتكلّم، وتلك المياه المتخمة بالقمر الأخضر بداخل عينيها، بلون الماس، وإلى أبعد ما تسمح به الرؤية، حيث يتشكّل بداخلهما السؤال، حتى وإن لم تطرح أسئلة، ولم تطرح أيّ سؤال منذ استأنف الحوار، حوارنا مع آييل، وقد لاحظت ذلك، لم ينقطع أبدا ويكون قد تواصل تحت جبال من الصمت الآن و... (ولكنّك أنت، آييل، كيف الحال عندك؟) ويواصل نفس السؤال طرح نفسه، هو نفسه، بعناد، دون مراعاة لأسئلة المحيط، السؤال الذي أحمله بداخلي (هل تسمعينه آييل؟)، دون مراعاة لأسئلة الآخرين، أحجار دون ألم قابعة في أعماقي، أو أنها تكتفي بالسقوط بحيث لا أسمع وقعها حتى وإن كنتِ أنتِ التي تطرحينها، آييل، أو عبارة عن قضم في الجهة الأخرى من الجدار، من الجهة التي تجلسين فيها، منفصلة، الجهة التي يُخيّل إليّ أنّ شخصا ما يتكلم بصوت خفيض. ولكن هذا لا يؤلمني، لا يؤلمني إطلاقا، أنت من الجهة الأخرى من الجدار، أنت من الجهة الأخرى، ما العمل؟ وأراك في الوقت نفسه، أرى كيف تحركين الشفتين؛ إذن أنت تتكلمين مشدودة إليّ، في السترة التي ألبستك إياها، سترة صفراء منقّطة بنجوم سوداء، وهذا لا يزعجني. (هل أنا بصدد تبادل جنون بجنون آخر، آييل، أم أنك أنت التي ستسهلين لي المرور؟) ربما لسنا بعيدَين الواحد عن الآخر مثلما هو ظاهر، وستكونين أنت (ربما) الباب الذي أعتّبه لأدخل حيث يجب الدخول، هناك حيث يجب أن أكون،

-أم أنّ نجمتنا هي نجمة جميلة سوداء؟ فجأة، أسمَع الكلمات التي تخرج من فمي، أقول لك: «الكل أو لا شيء.»

لا نزال دائما حول الطاولة ونواصل الشرب، النساء أيضا، وها هو طاليلو يقف فجأة على قدميه، أعلى منا جميعا، فيقول: «هل تتصورون أنه من البلادة أن يتكلم شخص مثلما أفعل. Well !». تهُبّ نسمة الريح من جديد وتصلنا نفس رائحة الأزهار، عطرة، مختلسة، إنها رائحة أخرى غير رائحة الكحول والسجائر والأنفاس المخمرة التي تزكم الأنوف ولو في الهواء الطلق، مثلما كنا. كما لو أنه ضوء جديد جاء ليدعّم ضوء الليل، الليل الذي لم يتوقف منذ ساعات عن أن يكون ليلا ويكبر باستمرار. لم يوجد وجه مضيء، بلا جدوى، أما الشمعتان اللتان تحتضران بين الأواني المنتشرة على الطاولة، فليست لتزيد الجوّ إضاءة. لا يوجد وجه مضيء، -يلمع كل وجه بخفوت مثل مرآة عليها ستار شفاف ؛ بعد هذه الكلمات الأولى، بقيت الأخرى مغروسة في حلقه، سكاكين موجعة، قد لا تحدثه أكثر الكحول حرقة. رفَعْتُ رأسي وتأملتُه، في سُكره، في سُكري ؛ لم يظهر لي دميما كما بدا لي في تلك اللحظة. حاول حفظَ توازنه، داعَب بيده أسفل وجهه الذي بدا كما لو أنه يعصره، سيُخرِج منه الكحول أكثر من الشحم. وفي نفس الوقت لم يكن أكثر جمالا كما في تلك اللحظة ؛ إنه سكران، وأنا كذلك، وجميعنا كذلك، لا يوجد داعٍ لخلق مشكلة. أمسك سكينا فوق الطاولة، طالب منا الصمت، أعطى ضربة على كأس تفتتت في الحين، كأس فودكا غادرتنا. بقي يطالب بالصمت دائما، يريد

القيام بضوضائه في هدوء. كأس فودكا منقوصة، فلا داعي لخلق مشكلة أيضا. اتّكأ بيد على كتفي وبيد أخرى على كتف «كورسي» زوجة الموسيقار، يدان أثقل من وزن ساعة حائطية. لا تكون كورسي تشكل عمودا متينا نظرا لضمور جسدها، ولكن غير مهم: يمكن للساعة الحائطية أن تتكلم ؛ هل نملك أصْمخة ملائمة لتحمُّل ضجيج صراخه. تكلم قائلا: «لكل واحدٍ منا عوائقه، قد لا يعرفها أحد. لكل منا سجنه، هو، هي، أنت (أشار إلينا الواحد بعد الآخر بحركة من الذقن، الحاجبان نحو الأعلى)، أنا (طبطب بقوة قبضته على صدره إلى حدّ كاد يفقد توازنه، كما لو أنه خشي أن نخطئ في شخصه). حينئذ ستبقى جالسا حيث أنتَ، لستَ قادرا على فعل شيء. ليس لأنك لا تستطيع فعل شيء... لا، ليس هذا: لأنك لستَ شيئا، أرأيت؟ ولأنك لست شيئا، فلا تستطيع أن تفعل شيئا!» وبعد هذا انطلق في ضحكة حادة، قه قه قه! وأدْخَل في نفس الوقت رأسَه وسط كتفيه كما لو أنه يتجنّب الضربات: «حتى الاسم الذي تحمله، فليس اسمك. تعرفون هذا الأمر جميعا، أليس كذلك، بأنّ اسمكم ليس اسمكم الحقيقي، وأنكم تملكون اسما آخر، بل تملكون أكثر من اسم تسمون به أنفسهم، خفية، وهي أسماؤكم الحقيقية، ولكن ليس الاسم الذي يُعطى لكم، وهذه الأسماء لا يمكنكم الإفصاح عنها.» من جديد، أدخل بين كتفيه رأسَه الذي تضاعف حجمه، وواصل كلامه بلسان ثقيل متلعثم، ولكن نظرته كانت تتجمّر في جميع شقوقها: «هذه الأسماء، لا يحق لكم البوح بها، اشْشْتْ، هكذا تسير الأمور.

لا يجب على الاسم الذي تتعرّفون فيه على أنفسكم أن يُكشَف كما لو أنه ذلك الذي مُنِح لكم، والذي لا يليق إلا بالناس، إلا بالوثائق الرسمية، والذي نكاد نخجل على حمله، أرأيتم؟ لا تكادون فقط، بل تخجلون منه حَقًّا ! إنّ اسمكم الحقيقي هو ذلك الذي تأخذونه مَعَكم إلى القبر».

هل وجب عليّ البقاء بسبب آييل، من أجلها، رغم التهديد الذي أحسّ به قادما الآن، قادما لا أعرف من أين ولكنه يحوم حولي، إحساس لم يحاصرني بمثل هذه القوة. لا يزال الوقت أمامي، ربّما هربت من الخطر إن أنا ذهبت دون انتظار، غادرت هذا البلد. ولكن من هذا الصوت الذي يطلب مني العودة، الرجوع، مَن مِن هناك يرغب أن أفعله. أَرْسول بعيدة جدا وقد فارقتها منذ زمن بعيد. نعم، من لا يزال يهتم بي هناك؟ إنّ أولئك الذين بعثوني إلى جرفير لا يعرفون أين أوجَد. ربّما يكونون قد قرّروا هذا الأمر ابتداءً من الدقيقة التي سلموا لي وثيقة التكليف بمهمة. ولكن ماذا يوجد بيني وبين هذه المرأة حتى يُلزمني بالبقاء، شيء أستطيع التحجّج به لإقناع نفسي بالبقاء، رغم اعترافي بأن البحث عن التبريرات في هذا الميدان هو آخر شيء نفعله. الآن يقف ساسكور، الجار الذي جاء بعد العشاء برفقة زوجته، إنه ثمل وداكن بحيث سيُظلم هذه الليلة الشفافة، فخيّم علينا صمت جنائزي. حتى روكا الجالسة قرب الموسيقار وهي تهمس له بعض الأقوال سكتت لتصوّب عليه عينا دائرية كعين طائر. لا، لم تكن النعمة تنير ساسكور، كان صغيرا، معقودا، ضامرا كجذع شجرة محروقة، وهو أمر

نادر في هذا البلد،، ومع ذلك كان ظله كبيرا، ظل زاد من كثافة بياض الصمت وبياض الليل ؛ كما توقف «برغول» من مداعبة «سيجا». «إنّ الشخص الجبان يبقى دائما وحيدا»، قال ساسكور بصوت صلب مثله، ثمّ كرّر بإلحاح سكير: «إنّ الشخص الجبان يبقى دائما وحيدا». كان هنا، متردّدا، النظرة تائهة، يبدو أنه كان ينتظر أن تأتيه البقية من شخص آخر. يواصل بعد أن استرجع شيئا من صفاء ذهنه: «تطن جميع القلوب الهلعة مثل الطنابير، تختفي الأيدي الهلعة كي لا تظهر ارتجافها». مال نحو الأمام، ثمّ التفت ضربة واحدة باتجاه طاليلو الذي يواصل الضغط بيده على كتفي، وبهذه الانحناءة يدفّق ساسكور ضد صدره، لا يزيد طوله أكثر من هذا، عتماته، كل ما يملك من حلكة فظة. ثمّ يمدّ كأسه، دون أن يدفق قطرة واحدة. قال وهو غارق الآن في مشاهدة قميص طاليلو ذي المربعات: «حكايات الأسماء التي دوَّختَنا بها، هذه الأسماء التي ليست أسماءنا، إنها ترهات، أسمح لنفسي أن أقولها لك باعتباري جارا. إنها حكايات خراء !» «هل سيبقى هكذا طويلا، دون أن يسقط، دون أن يُسقط قطرة واحدة من كأسه. انقضَت مدّة من الزمان قبل أن يفهم طاليلو ؛ حينئذ رفع كأسه، بقي هو أيضا بكأسه في اليد، مرفوعة. يطن الناموس من حولنا، هذا ما كنا نسمعه. «إنك هرِمْت، وبدأتَ تُخرج لنا حكايات معوجة مثلك، حكايات بليدة»، صرخ ساكسور في صدر طاليلو كما لو أنه ينطحه بضربات رأسية. «إنك هرمت، وأصابك الجبن، أنت وحيد. حينما يصيبنا الخوف، نصبح مثل كلب خائف:

ينام على الأرض مرتجفا ويريد أن نرفع عنه هذا الثقل الغريب الذي يسحقه. وأنتَ، ونحن جميعا، نقبّل الأرض مثله وننتظر من يرفع عنا هذا الثقل الذي يسحقنا. هيا يا شيخ، نَخْبك ! « يشربان، نظرة الواحد عائمة في عيني الثاني. يحطان الكأسين اللذين أفرغاهما في وقت واحد، مسحا فمَهما باليد في حركة مماثلة. عندما حطّ ساسكور كأسه على الطاولة، تمايل قليلا، بخلاف طاليلو المتين على قواعده كما عمود معبد. الكؤوس ممتلئة الآن بهذه الليلة الأكثر لمعانا من هلال، فطفقت روكا تبكي. لا تتشنّج تقاسيم وجهها المنتفخ ولا تهتز كتفاها: لا تتحرك و الدموع تسيل. تسيل بنسق واحد، ببساطة، كما لو أنّ قلبها بدأ يذوب وأنه يفيض عبر العينين. تسيل مياه شفافة مثل هذه الليلة، شفافة إلى حدّ أضحت غير مرئية. الآن يجلس ساسكور، وبصوت خفيض يسترسل في حكايات يستمع إليها بسحنة حالكة، وقد اختار نفسه ليكون الجمهور المستمع: «حينما تكون وحيدا، تساوي الحياة أقل من ثقب الباب الذي تلصق إليه عينك كي ترى الناس يتضاجعون. وحده الموت يملك قيمة. تترك الأشياء تأتي، وستأتي. تترك الموت يأتي، وسوف يأتي. هوب، داخل الحفرة، ولكنها ليست نفس الحفرة. لا ينبغي أن تشتكي... » وفيما كان يغمغم بتلك الطريقة، أفرَغ طاليلو فوق جمجمته، وبهدوء، قنينة بيرة أخذها من الطاولة مصادفة. لا يرى ساسكور شيئا، ولا يحسّ بشيء، ولم يبادر بأية حركة، يبكي دموع بيرة وكفى، فقد تبلّل كلية وجهُه المتغضّن.

من يذهب سوف لن يعود، وليس من مهمة المنزل أن يذهب للبحث عنه – يبحث عن الذي لا يملك واحدا، وقد ضيّعه. هو الذي يتوجب عليه أن يبحث عن منزله، يكون مُنتَظرا إياه في مكان ما. توقفت روكا عن البكاء، وكفّت عيناها عن الذوبان، والآن تقول بأنها تستمع إلى الربّ، وبأنه هنا حولنا، ورغم أنّ هذه الليلة لم تصل بعد إلى نهايتها، إلا أنه قد رفع الشمس على يوم سيء. إنها ألفاظها الخاصة، يوم سيء، يوم ملعون. ثمّ أضافت بأننا لو تكلمنا مثلما نتكلّم وسنرى ذلك جيدا، سيكون للجميع موضوعا للتفكير. ثمّ وضعَت يديها على وجهها، فأظلمَت على نفسها في الليل الذي لم يصل إلى نهايته، ليل مزيّف، وأغلقَت على هلعها داخل هذا الليل المزدوج. الآن ليس لها وجه، وليس لها عينان لتبكي ؛ لا تتحرّك، تحافظ على نفس الوضعية، ربّما كانت تنتظر طلوع النهار. هذا النهار السيئ، هذا الملعون، هذا النهار الخبيث الذي طلع. «كل شيء يساوي أقل من الثقب...» يُضَغضِغ ساسكور خليطا متشابكا من الكلمات. قال طاليلو: «من الأفضل لك أن تغلق فمك»، بصوت مصفّر، منحرف نوعا ما، وقد اعتقدنا في البداية أنه وجّه كلامه إلى ساسكور، ولكنه رماه باتجاه روكا. «تسمعين الربّ وتعرفين كيف تفتحي ساقيك للجميع، يا عاهرة ! لأوّل رجل يريدك». يتكلّم بلا غضب، دون أن يرفع نبرة صوته، وحينما استمعت روكا إلى هذه الكلمات، انتصبَت ونفخت صدرها المزدهر وابتسمَت بغُنج. عند هذه اللحظة، رفع الموسيقار القيثارة الموضوعة بقرب قدميه، وبدأ يحرّك وترا من هنا ووترا

من هناك التحق شيئا فشيئا ببلد الافتتان. لفَفنا أجسادنا داخل أغطية أتينا بها من الداخل، لأنّ الجوّ أضحى أكثر برودة – من تلك البرودة التي تزرّق الينابيع قبل طلوع الشمس. لا يوجد الآن حول الطاولة إلا الموسيقار، طاليلو، آييل وأنا، أما الآخرون فالتحقوا بمضاجعهم. انطفأت الشموع. انحنَى الموسيقار على قيثارته كما لو أنه يراقب خروج النغمات الصاعدة من الأوتار المرافقة للغناء الذي سيقوده، ونحن نقتفي أثره، إلى دروب مسكونة... دروب غابية، دروب البحيرات الجامدة، دروب الأراضي الرمادية... في نفس الوضعية، يستمع، معتنيا فقط بالصوت الذي يأتي من الآفاق الضبابية ويمر عبر صوته هو، وصوت آييل وحتى عبر صوت طاليلو الأرعن، يغني ثلاثتهم بصوت واحد، دون احتساب ذلك الصوت، داخل الطبيعة، الذي يقودهم بإغراء عصي المقاومة:

إذا جاء حبيبي

إذا مشى حبيبي نحوي

سأعرفه من خلال خطواته...

شيء مريح حيث نشعر بالراحة، وشيء مُضرّ في الباقي كلّه، في الشيء الذي يمكنه أن يُضرّ. لا نعرف ماذا نفعل مع غناء بهذا الجمال، يمزّق من فرط الجمال، ومتأسف بهدوء. ولا يهم كثيرا أن لا يكون معروفا لديكم، سيرجعه ذلك الحنين الذي يعبره وينفخه أليفا لديكم وسيتحدّث بلغتكم. إنّ الذي يذهب لا يمكنه أن يعيد خطواته في خطواته. حنين ناعم، قاسٍ،

يواصل الموسيقار الضرب على الأوتار، ساعة، ثم ساعتان، ويصبح الجوّ المحيط بنا نقيا، يترك لدينا إحساسا بالبرودة حينما يهبط في الرئتين، إلى حدّ يخال إلينا أن لا أحد قد تنفّسه قبلنا. نبقيه بداخلنا، فلا نريد مفارقته. طلع النهار. طلع قبل أن ينقشع الظلام. على الأشجار الكبيرة، تلتهب نقاط نار أشعلتها الشمس ويتواصل الغناء، سعيدا ومتحمسا، ترافقه الطيور، يزيد النهار إضاءة ويزيد الغناء خفة، خيوط حريرية يرقص فوقها حلم النهار المشمس، حبكة يلتقي فيها: همس النسيم، غمغمة المحيط، خشخشة الأوراق، - ودائما ضوضاء الحياة التي تفرّك عينيها.

سكت طاليلو ولكن وجهه الأملس كوجه دمية لم يفقد الابتسامة التي ارتسمت عليه أثناء الغناء. أصبحَت تلك الابتسامة ساهية، واتّخذَت العينان تعبيرا جادا، احتجبت العينان ولم تعدان تشرفان على العالم الخارجي. لقد أفرط في الشرب، كما أفرط في الكلام، والآن قد انتهى، لا يريد لا شرابا ولا كلاما. ربما يكون قد أفرط في الغناء أيضا، ومع ذلك يبدو مثقل القلب بهموم ما. لا يوجد شيء يقال حول هذا ولا أحد يثير له أدنى اهتمام، وإذا أحس بضجر ما، فسيزول مع زوال السكرة. «سأقوم بدورة قصيرة»، قال وقد انتصب على رجليه. سيقوم بدورة كي لا يكون مضطرا للكلام ولا للغناء ولا للشرب: بكل تأكيد. ويبتعد في الفجر. ولم يمنع هذا الفراق الآخرين من مواصلة الغناء. يمكن لطاليلو أن يكون قد ذهب بكل براءة وطبيعيا ليريح جسده خلف شجرة، بعيدا عنا. مع

كل ما احتسيناه من بيرة ! ثمّ اصطك شيء، شيء شبيه بصخب الصباح، كضربة محرك فاشلة في مركبة. لم ينتظر أصدقائي لحظة ليقوموا في حركة واحدة، ويركضون في الاتجاه الذي سلكه طاليلو، ثمّ يلجون داخل الدغل الذي اختفى فيه. تبعتهم دون أنْ أعرف ماذا حدث. خرجوا بسرعة، راجعين، يسندون طاليلو كما لو أنّ به صداعا ما. الظاهر أنه في صحة جيدة، سوى أنه أحس بفشل، كان يقف بمفرده، ويمشي بمفرده. ثمّ لاحظت الدم، خيط لامع يسيل على رأسه وينحدر على وجهه مرورا بالعين وإلى غاية زاوية الفم، ويبدو أنّ الدم يسيل من فمه أيضا. فجأة لاحظت هذه الدماء وفهمت. كما لو أنّ هذه الدماء تناديني، فغادرتني دمائي أيضا، بدَت كما أنّها تريد مغادرتي: أطلق طاليلو رصاصة في الصدغ ولكنه أخطأ الهدف. لقد رفع الرب شمسه على يوم سيء، يوم ملعون ؛ لقد أعلنه لروكا بكل الحبّ الذي تكنه لطاليلو. عوّضْت آييل التي ثقل عليها كثيرا وأرجعته بمساعدة الموسيقار. رفع يدَه إلى صدغه فيما كنا نقدّم له مساعدتنا، كنا في حقيقة الأمر نجرّه جرا، أسلم لنا جسده وراح ينظر إلى يده، وحينما رآها ملوّثة بالدماء، حاول إخفاءها في جيب من سرواله. فدخلنا إلى المنزل، كان الآخرون جميعا نائمين.

في بادئ الأمر، يوجد هذا البياض الذي يدوم إلى ما لا نهاية، أكثر بياضا من وجه الزمان. يدوم، وتبدو الأشياء موضوعة لتكون فكرة للأشياء فقط، وليس لتأثيثها. وبعد ذلك أشرقَت الشمس، وصلَت وأزاحَت كل هذا البياض، فبدأت الأشياء تتواجد في الغرفة، معنا، وفي الخارج. يتحرّك كلُ شيء، تعود الأشياء من جديد إلى ذاتي في تنهّد طويل يُسمَع من جميع الجهات. قبل قليل، كان الليل لا يزال يلمّح بظلاله، وفجأة لم يعد لليل وجود ؛ كانت آييل بين ذراعيّ، وجسدها ملتصق بجسدي، وكنت أشعر بعذوبة فَرْوة بداخلي. فبدا لي فعلا أنّ حرارة فروة تنبعث مني، وأنني أحمل الحرارة بداخلي. ولكن هي ؟ يلامسها بصري، تذهب نار فروتي إلى غاية جسدها ثم تعود لتداعب قلبي. الآن، الشمس عالية في السماء، لم تصل الساعة الرابعة بعد، تضيء كون ما قبل الإنسان، هذا هو مظهرها على كل حال. إذا كنّا ننام متأخرين، أو إذا كنا ننام مبكرين، لم أعد أعرف. ابتداءً من اللحظة التي وطئت فيها قدمايّ هذه الجزيرة، فقدْت الإحساس بالمتأخّر والمبكّر، بالنهار الذي يتبع الليل، يتبع النهار. يُمكن لنا أنْ نقول، النهار يتبع النهار، أو الليل يتبع الليل، ونكون قد قلنا الشيء نفسه، أحسسنا بالشعور نفسه. ونمرّ منبهرَين، آييل وأنا، من الواحد

إلى الثاني، أبعد من الحواجز التي سقطت بغتة، وهذا الصباح تنير الشمس نهارنا الثالث، نهارنا الأخير.

لقد عشت في هذه الأيام أو في هذه الليالي التي تنظر إليّ بعيون مكحّلة بالنوم، ما لا يمكن قوله، ما لا ينبغي للآخرين معرفته. يشبه هذا المسار الاسم الذي تمنحه لنفسك في السرّ، الاسم الذي هو اسمك الحقيقي : فلا تريد رَمي هذا الاسم غذاءً لفضول الناس. لا أظن أنّي في كامل قواي العقلية ؛ وآييل ؟ الشيء نفسه حدث لنا معا ولم تتوقف عيناها عن الكلام عنه، تكلمني عيناها، تنظران إليّ، مجنونتين، كما هذه الأيام أو هذه الليالي، لا تستطيعان منع نفسيهما عن الكلام. وتصوغان نفس السؤال، هذا السؤال الذي يريدني أن أسمعه، أن أتعرّف عليه، أن ينفذ إلى قلبي، تتكلّم عيناها وتبتسمان ببلاهة. أكيد أنها هي أيضا لا تملك كامل قواها العقلية ؛ من فضلك آييل، لا تطلبي منّي ما لا ينبغي المطالبة به (شخص ما يتحدّث بصوت خفيض إلى جانبنا، بعيدا نوعا ما، في مكان ما، وقد حاولت لمدة طويلة التعرف عليه، أن أتذكر هذا الصوت، دون جدوى، لم أتمكن من ذلك أبدا. في المقابل، ارتفع صوت روكا طوال هذه الليلة، ليلة بيضاء ومشمسة مثلما يمكن لصوت روكا أن يكون، وصوت طاليلو أيضا، يتشابك الصوتان، يتعانقان في صراع جسدي آرق وقاتل. وبعد ذلك بكَت، هل استمعَت إلى الربّ ثانية ؟ لقد بكت، روكا، كما الصخرة الذائبة، بلا صخب، ولكن شجنها اخترق الجدران ووصل إلى حدّ غرفتنا حتى وإن كان أخرس. ربما لم يعد لها وجه هذا

الصباح من فرط البكاء. لا يمكن لأحد أنْ ينام في مثل هذه الليالي، يجب أن نضحك ونتسلى إلى غاية فقْد صوابنا، أو نبكي، أما النوم فلا. ولكنّك نمت، آييل، في هذه الليلة التي كان فيها شخص آخر يبكي. حاولَت أنْ أنام، ولكن لم يغمض لي جفن مع كل هذا البياض وهذه الدموع. حاولتُ مرارا إغماضَ عينيّ طمعا في جلب النوم، ولكن هذا الأخير رفض المَجيء. كان النوم يفارقني أكثر كلما أغمضت عينيّ، فأحسّ بأنّ شيئا يعتّب النافذة ويتسلل إلى الغرفة : من يكون ؟ ماذا كان يوجد في الخارج، في هذه الليلة، كي يريد شيء مثل هذا أن يدخل. بدا لي كما لو أنني قمت باقتراف ذنب ما، شرّ غير قابل للاغتفار، ويأتون للبحث عني بسبب هذا. الأبشع في الأمر أنّ هذا الشرّ نفسه هو الذي يزورني ويدعوني إلى مرافقته. كان يقول لي في سهادي : «لننه الأمر، لننه الأمر فورا» وفي اللحظة نفسها، يخطفني النوم وأشعر بنفسيَ أنني ذهبت. ونفس الكتلة الثقيلة تضغط على صدري، فأرى نفسي وسط مياه داكنة، وهذه الكتلة الضاغطة تغرقني. تغرقني بهدوء وأنا أتشبّث بكلتا يديّ النديتين ؛ كان ذراعك، آييل).

أهمس : «آييل» وأكرّر : «آييل». ولكنها تنام، الشمس عالية، تنيرنا، قريبا سأنسى كل شيء، اللحظة الراهنة، تلك التي مرت منذ قليل، كابوسي، هذه الغرفة وما يوجد بها، قريبا سيتبخّر من ذهني كلّ ما فعلته وكلّ ما رأيته كما يترشّح العرق من جسدي (هل هو أنا أم أنت، آييل، لا أعرف)، عرقي الساخن، وآييل بين ذراعيّ. أتمنى أن لا تطلب مني ما لا ينبغي

المطالبة به، بعد قليل سأطرد هذه الأفكار، كما سألفظ هذا البياض، بياضه الناصع وهذه الشمس التي جاءت تنيرنا والتي تستقر في هذه الغرفة، غرفة مجهولة، بعد قليل سأكون شخصا آخر، شخصا يحمل اسما حقيقيا...

... مرآة في إطارها (أحمر) معلقة في الجدار، أنزلق خارج السرير لقضاء حاجة طبيعية عاجلة في الطبيعة وألتقي بالآخر في المرآة، ولم أكن أتوقع رؤيته عاجلا ؛ صورة حملتها معي إلى الخارج، وكانت الأجمات والنهار وكامل الجزيرة المبللة بالندى إلى غاية الأهداب تنظر إليه يبول بدموع من الفرح...

... بين الفينة والأخرى، يصطك المنزل الخشبي في صمت الصباح الباكر ؛ يصطك بجميع عظامه الهرمة كما لو أنّ هذه كانت طريقته في الحلم، في اجترار أفكاره وذكرياته، ما بقي راسخا لديه، مفاجآت الأمس أو أيام أخرى ماضية، والتي يحتفظ بها بغيرة كبيرة مسجونة بين جدرانه –وبعد ذلك يخيّم الصمت من جديد ويتعمّق، يتحوّل إلى نور، إلى برودة منعشة، إلى قطرات ندى...

... لا يوجد إلا صوت واحد لا يُسمَع. مع أنه أشبَه بدقات قلب، تتصارع مع الأشجار المحيطة، تنقضّ على السماء، على المحيط الصاعد، والنهار الصاعد. الريح. تضرب ضد أسوار سجنها، ولكن النوارس هي التي تحدث الضوضاء الأكثر صخبا، تصرخ كما لو أن جميع شياطين جهنم اتخذت شكل طيور. ألقي نظرة جانبا، أظن أنّ آييل لا تزال نائمة، ولكنها لا

تنام، إنها ممدّدة على الظهر، ورأسها دائر في اتجاهي، وبصرها موجه إليّ أيضا، من بعيد، أبعد نقطة في ذاتها، وربما كان هذا الوضع يدوم منذ لحظات طويلة. إنّها لا تَنام، هذه لحظاتنا الأخيرة، سنغادر الجزيرة بعد ساعة أو اثنتين، ويتحدّث نور عينيها عن دهر أو اثنين. قلت : «إنها نوارس، هذه المرة». أشارَت بحركة من رأسها أن نعم ولم تتوقف عن النظر إليّ. لم تتوقف شفافية عينيها الخضراء عن إعطائي الجواب، وكما لم يتوقف النهار عن تنصيب أشجار البتولا والصنوبر، وأنواع أخرى لا أعرفها، على النافذة، وهي تنظر إلينا مثلما كنا عاريين، والأغطية ملفوظة جانبا...

كنت سأجد الرسالة عند وصولي، هذا الصباح بالذات. كلما اقتربَت ساعة العودة كلما انتابني الشك. انتهَت إقامتي في هذا البلد، كان ذهني معلقا على هذه الفكرة، على أمر الاسترجاع الذي ينتظرني في الفندق. ها أنا في جرفير ولا أثر لأي أمر ؛ فجأة، لم أجد ما أفعله. أستأنف انشغالاتي حيث تركتها، أكتب التقارير، ومن جديد ألتقي بهذا وذاك، لا، سئمت كل هذه الأعمال، ولم أعد أرى فيها أيّة فائدة. أعود إلى الحُفرة ؟ هذه اللعبة أيضا أضحت في نظري أكثر تفاهة، أكثر بؤسا من غيرها، ولم أعد أرى فيها أية فائدة. أفكّر، أحلل الوضع إلى أعمق نقطة ممكنة. «اترُك الأشياءَ تأتي من تلقاء نفسها» : إنّ ساسكور على حقّ حتى وإن كان في تلك الثمالة، مع أنني لست أكثر استعدادا من السابق لاعتناق هذه الفلسفة. آييل ؟ إنّها تعرف أنّ عليّ بمغادرة بلدها، لم تُطرَح بيننا مسألة رؤيتنا من جديد ؛ يمر شبحها أمام عينيّ، يلفّه الضباب، ولكن إحساس النور الذي تدفقه نظرتها غمرني بفظاظة، لقد احتفظت به في شفافية ساطعة. ولكن لا يمكنني أن أفكّر فيها، كانت حياتي تسير تحت نظرتها في وجهة غير متوقعة وغير مرغوب فيها. حان الوقت ؛ هي أيضا لا ينبغي أن تفكّر في... اتركي الأشياء تأتي من تلقاء نفسها، آييل،

وستأتي، اتركي النسيان يأتي ؛ حتى وإن كان شيئا (الأشياء التي تأتي من تلقاء نفسها) لم أرده أبدا. قريبا أو بعيدا، في مكان ما، أجهل أين، يحاول شخص، صوت، أن يكلمني ولا يفلح ؛ أستمع، ولا شيء. كما جميع أولئك الذين يُكلّفون بمهام مماثلة لمهمتي، يكون بلدي قد ضحّى بي، وفعل ذلك عن قصد، وعن سابق معرفة. إنّي أفهَم جيدا ما يقوم به قادتُنا المتنوِّرون، أفهَم النية التي تؤجّجهم وهم يبعثونني إلى هنا، أكيد أنهم فكروا أنهم بعثوني إلى خطوط الجبهة الأمامية، وأننا في حرب فيما لم يُعلن اندلاع أية حرب. يختارون (وهو تحصيل حاصل) الرجال نظرا إلى الخدمات التي يستطيعون تقديمها، ولكن هذا لن يغير في الأمر شيئا، فهم يضحون بهم في آن واحد. إذا كان الوضع هكذا، إذا كان الوضع حقا هكذا... ماذا يريد هذا الصوت أن يُسمِع لي دون أن ينجح : يجب أن نترك الأشياء تأتي من تلقاء نفسها ؟

في كل الأحوال، وحدها الأشياء تملك صبرا كبيرا، أنت تذهب وهي تبقى في انتظارك. من جديد عثرت على فندقي، وعلى شقتي في هذا الفندق، ومعها عثرت أيضا على أدواتي الأليفة : تلك التي كانت قبلي، وتلك التي تمكّنت من الإتيان بها، كانت في انتظار وصولي. ما كان عليّ إلا أن أصل حتى تتواصل الحياة كما سابق عهدها، تستأنف الحياة سيرها، مليئة، غير شاغرة. نعم ولكن... كما لو أنّ نفحة موت مرت فوقها : كل شيء كان في مكانه، مكانه السابق، ومع ذلك بدا كل شيء منطفئا، ذابلا، والأدوات مغطاة بغبار حطّته هنا

اللامبالاة والإهمال، غبار لا يمكن أن نخطّ عليه بطرف الأصبع كما على الغبار الحقيقي. والحفرة، هل انشغلت بأمرها ! أتساءل في كل مرة لماذا، وماذا هيّجني فيها إلى هذا الحد. لقد سجلت كل هذا –كي أحتفظ بشهادة، أملك أدلة، هكذا فكّرت– في كنّاش، إنه هناك، على زاوية الطاولة، مفتوحا مثلما تركته عند ذهابي إلى الجزر. قرأت بعض السطور، تلك الأخيرة التي سطرتها يدي، تركتها بسرعة. إنّي أحتفظ بهذه المفكّرة القديمة، المنتهية الصلاحية منذ فترة طويلة، أحتفظ بها لغلافها الجلدي الأخضر الذي يعجبني. للأشياء صبر كبير : مثلا هذه المفكرة بقيت هنا تنتظرني بصفحاتها التي استُخدمَت وتلك التي يمكن استخدامها مستقبلا. ولكن يحدث أحيانا أن لا يتمكن صبرها الجميل من إرجاعنا، وتنتظر بلا فائدة. يا للفكرة التي أدّت بي إلى إرسال تقارير حول الحفرة إلى أُرْسول ! كما لو أنها ستشكّل معنى لهؤلاء السادة من الحكومة. إني مندهش، مُتقزّز. وحده الهاتف أنقذني من ضجري، لفترة المكالمة، ولكنه يمثل الأداة الأسوأ التي أعيش معها في هذه الفترة. يبدو لي بلا انقطاع ولا هدنة أنه سيعلن لي خبرا لا أجرؤ حتى على تصوره، رغم أني لا أنتظر أيّ خبر. من آييل ؟ تدفّقت صور أمام عينيّ. صور وصور. أنا بلا حماية ضدها، ضد واحدة منها على الخصوص ؛ كان ذلك في منزل الجزيرة، كنت نائما وهذا ما رأيته هذا الصباح : رأيت آييل عارية تماما في النافذة، جميلة وبيضاء مثل تمثال البساتين. جلست على حافة السرير،

أتذكّر تلك الصورة، -أبحث، وفي مثل هذه الساعة، ولكن عن ماذا ؟

أظن أنّه من الأفضل لي أن أقوم بجولة إلى المدينة. لا يمكنني البقاء منغلقا على نفسي بهذه الطريقة، وإرهاق نفسي باجترار القرف الذي تحدثه في نفسي رؤية أي شيء، سوف لن أتحمل طويلا. لن تكون هناك رسالة، ولا أمر بالاسترجاع من أُرْسول، يجب أنْ أقنع نفسي بهذه الفكرة. أترك كل شيء مثلما هو عليه في غُرفتي وأخرج.

أتدحرج عبر الشوارع الهابطة التي تؤدي إلى الوسط، فيتضاعف الحشد والسيارات والضوضاء، الجوّ جميل دائما، شيء غير متوقع، شيء مدهش بالنسبة لهذا البلد. ومع ذلك توجد رائحة الخريف في الجوّ -والصيف لم يبدأ بعد- ولكن في هذه الظهيرة المشمسة يوجد السكون أيضا، وفوق كل هذا، يحلق هذا الشعور بمداومة غريبة عن الفصول. ودون تفكير مني، قادتني خطاي إلى غاية الجسر الطويل فوق «الصلان» جسر جنيات البحر، لقد سبق لي أن تجوّلت فوقه مرارا. لا يمكنني الشعور برغبة أكثر شرعية في يوم كهذا. في كل مرة أجد متعة كبيرة في تجوالي. وكم كانت مفاجأتي كبيرة عندما اكتشفت بيوتا سوقية متنقلة مصطفة بُنيَت حديثا على المنبسط، هذا المنبسط العريض الطويل الذي بإمكانه احتواء جميع مركبات وبيوت أسواق العالم. لا أتذكّر أني رأيت مثلها في هذا المكان رغم أنها بدت لي كما لو أنها انغرست هنا منذ الأزل. هل مرّ

وقت طويل لم أزر فيه هذا الجزء من المدينة ؟ أطلت المشاهدة، إلى هذه الكهوف السحرية بأضوائها الاحتفالية وعجائبها فوق الرفوف المرصعة بأدوات التزيين، وإلى هذا اللمعان. انتهى بي المطاف إلى التوقف قرب واحدة منها، ربما لأنّ لا أحد ارتأى فعل ذلك **سيكون هناك دائما شخص أو شيء كي نطلب منه أن يحكي لنا زمانه، حياته وإلى غاية أفراحه وأتراحه.**
ولكن الذي أثار اهتمامي هو الشخص الذي يديرها. كان غارقا في عزلته، ربما يواصل اجترار إعلاناته في الفراغ، يفك كبّة الكلمات التي لا تبلى، دون أن ينظر إلى أي شخص ولا أي شيء، يرتل في لامبالاة : «تقدّموا، تقدّموا، سيّداتي، سادتي، الدورة المقبلة بعد دقيقة واحدة والفوز مضمون في كل مرّة. دُمَى، عرائس من كل نوع، حيوانات عالمة، البعض يمشي عاديا، والبعض إلى الخلف... أواني الطبخ، عطور، شامبانيا، وعقل إلكتروني، إبداع خاص بالدار، يمكنكم الفوز بجميع هذه العجائب... خذي تذكرة سيدتي، خذ تذكرة سيدي، يوجد ناس لا يؤمنون بالمعجزات، وهم على حق، هنا لكل شخص حظ، نفوز في كل الضربات. تقدّموا، تقدّموا، سيداتي سادتي، خمس تذاكر بـ...».. فجأة يلاحظ حضوري، فتنفتح عيناه دون أن يكون قد أغلقهما في أية لحظة، يثبت عليّ نظرة تائهة لشخص يعود من بعيد، شخص كان نائما، فيستيقظ، يهزّ نفسه، يسترجع صفاء ذهنه. فقَد لسانَه ؛ ليس لمدة طويلة، بسرعة يعثر على كلماته ومعها على صفائه، فيواصل دفق خطابه : ولكن ليس بنفس الفصاحة، إنه نوع من الخطاب

الجدّي الصارم الآن، متماشيا مع سحنة صارمة –شبه يائسة أيضا أو شبه متسلية. تأخّرت الكلمات عن الخروج، وها هي تأتي مدوية لحما ودما : «بإمكانك أنْ تربَح، قال لي وهو يشير بالأصبع تقريبا –محاولة ارتسمها ولكنه لم ينفذها في نهاية الأمر– إلى كوم رائع من العجائب الصغيرة. (يؤمن بذلك، يبدو فعلا أنه يؤمن بذلك.) آلة عصير، دبّ مخملي، طائر آلي في قفصه، الدورة المقبلة بعد ثلاثين ثانية، لا تخشوا شيئا، لا توجد أرقام مزيفة، الربّ الكريم في جنته لا يمنح لكم أحسن من هذا. (انخفضَت نبرة الصوت والنظرة معا، انحرفَت، فعادت التسلية إلى احتلال المكان الشاغر : فاستأنف بحرارة أقل :) تقدّموا، تقدّموا، سيداتي سادتي، خذوا كي لا تندموا بعد..». عاد إلى ذرع المسافة بين طرفي جناحه، وفي هذه اللحظة لم يعد يرى شيئا، فقد سقط الغسق على عينيه. وبحركة آلية، وحاذقة أيضا، يبعث في آن واحد العجلات الثلاث المطلية بالكروم والتي ستظهر الرقم الفائز. انتظرَت طويلا كي تَستقر على الرقم، تظهر الآن مثل ثلاثة أقراص من النور، ثلاثة شموس تدور في الوقت الذي يصل فيه كنّاس خطوة خطوة، فابتعدْت لأتركه ينظف الأرضية من التذاكر التي تراكمت فوقها بحركة واسعة ولكنها مقتصدة. فبعد أنْ طيّر التذاكر الأولى في الهواء، تبعتها أخرى، وابتعد مثلما جاء، يستخدم مكنسته مثل منجل كبير، خطوة خطوة، وأنا أوهم نفسي بنسيان أفكاري على أمل أن تنساني هي الأخرى.

اتكأت منذ دقائق عديدة على درابزين جسر «صْلان»، وأنظر إلى النهر. فوق المياه الراكدة، تتدحرج المراكب الخاصة بالصيد والسفن السياحية الشاغرة. من حين لآخر، تذرّر شمس رمادية على المكان لمعانا باهرا. للقمح الناضج شمسه الخاصة، وللأنهار أيضا شمسها. لفحتني إحدى هذه الأشعة اللامعة، ومن جديد تلك العيون، تنظر إليّ وتلتهمني، تُحرّك جفوني ويطبقها على عينيّ كي أحتفظ بذلك الإشعاع، وأبتلع الشعلة السائلة ؛ الصوت أيضا لم أرد تركه يبتعد عني، صوت شعلة خضراء يقول دون كلمات : «وللحب شمسه أيضا»، ولم أفعل إلا فتح العينين وغلقهما، أفتحهما ثم أغلقهما مباشرة، لم أتمكن من تحمل سطوع مثل تلك الشمس. يتحدّث شخصٌ بصوت خفيض، قريبا أو بعيدا، في مكان ما، ومن جديد هذا الصوت الذي لا أعرف من أين يخرج، وبعد ذلك يعوّضه كلام آخر، ثم آخر، وهو دائما نفسه. التفتت إلى اليمين، لا إنه شخص على يساري يوجّه إليّ الكلام، - منذ فترة بلا شك : شخص ما، واحد من الغرباء الذين تعجّ بهم المدينة، من الغريب أن يكون العالم غاصا بالغرباء أكثر فأكثر. يسند ظهره جيدا إلى الجسر القديم، يكشف لي عن تقديراته حول الطريقة التي ينادي بها سكّيرٌ الناس أمامنا. في تلك اللحظة رأيت السكير أنا أيضا، يدفّق خطابه، ذراعاه ممددان ؛ ومثل صاحب جناح العجلات الثلاث قبل قليل، لا أحد يجهد نفسه للاستماع إليه، يلفظ حلقه شلالا من الحجارة عند أقدامنا، مثلما يقال : ويستدير الجميع هذا الركام من الأحجار ولا يتوقف أحد. أدخل

جاري صوتَه وسط هذه الضوضاء، واستمعت إليه يقول : «ماذا تريد أن يكون غير هذا ؟ إنّ الذين شيّدوا جرفير كانوا مجانين، وأولئك الذين يواصلون بناءها مجانين، ومجانين أيضا أولئك الذي يعيشون بها». أغضّ الطرف عن النبرة التي كان يرافق بها أقواله ؛ ويبقى نوع الحرية، أو الصراحة، التي باشرني بها ويواصل إبداء اعترافاته لي. لم أكترث بكل هذا، ولكنه واصل خطابه : أطلت فيه النظر، فيواصل، هذا الطائر الغريب، كما لو أني كنت أخاه، أو قريبا له، بتلك الألفة، بنفس الحرية، ونفس الصراحة. وفهمت مغزاه : **أنا أخوه. أخوه، أو قريب له فعلا**، ليس بالمعنى الاستعاري للكلمة، أي باعتباري نظيرا لك، ولكن بالمعنى المؤسِّس، الراسخ والمشهور لعلاقة دموية. ربما كان يعرف قصده جيّدا، هو الذي لم ينتبه حتى إلى علامات الدهشة التي ارتسمت على وجهي، ليكلّمني مثلما يفعل. ومع أنه يبدو لي أنّ لا شيء في رأسي، ولا في نبرة كلامي، وهيأتي، وطريقتي في اللباس، يذكّر بأصولي – ولكن أي رأس، أية نبرة، أية هيأة، يمكن أن يتّخذها من هو في مثل أُصولي ؟ كيف أنه لم يخطئ في الوقت الذي حدث لسكان أُرْسول، مسقط رأسي، أن ينخدعوا. ربّما المتسبب هو تغيير الجوّ. يجعل المتشابهات أكثرَ إبرازا، يقربنا البعد من نقطة انطلاقنا أكثر مما نتصوره. ولكن يا للغرابة، ماذا يفعل شخص مثل هذا تحت هذه الأجواء. إنّه أول من صادفته منذ سنوات قضيتها في جرفير. لقد جاء يبحث عن العمل مثل الكثير من

أقرانه، هذا واضح جدا، يحمل العلامة على كتفيه. وقال بأنّ الذين يعيشون هنا مجانين. قلت مبتسما :

«هؤلاء الذين يعيشون هنا. أنت مجنون أيضا.

– أنا عابر سبيل. مسافر فقط.

– عابر سبيل، مسافر. منذ متى ؟

– اثنا عشرة سنة وأربعة أشهر، ولكني لست إلا مسافرا. حتى وإن قدّر لي أن أموت هنا، فلست إلا مسافرا. هُم الذين أرادوا ذلك».

هُم، لقد أكّد على هذه الكلمة بنبرة صوت خاصة. فكّرْت أنْ أسأله عمّا يقصد بهذه الكلمة، فلم يترك لي الوقت الكافي، استطرد قائلا : «كيف أمكن لهؤلاء أن يتركوا نهرا يمر وسط المدينة.

– وسط المدينة ؟ ولكن جرفير بنيت على النهر الذي كان موجودا قبلها».

استمعت لنفسي وأنا أقدّم هذا الشرح، فأدركت رعونتي، بأني أتكلم في الفراغ. فأجابني بطبيعية مريحة : «أنتَ الذي تقول هذا الكلام، ربّما اليوم لا يظهر لك هذا. اليوم تظهر المدينة أكثر قدما، ويبدو أنّ النهر هو الذي استُقدِم هنا ليمُرّ وسطها، إن الأشياء تتغيّر مع الزمان. هم أناس يفعلون مثل هذه الأشياء، حتى وإن كان النهر هنا قبلهم، مثلما تزعم.

الشيخ يتحوّل إلى شاب، والشاب إلى شيخ. ولِمَ تصلح كلّ هذه البنايات ؟

– البنايات... (لم أجد في نهاية المطاف إلا هذا النوع من الجمل الفارغة، بلا أي طعم) إلى استخدامات كثيرة...

– قصدي، ما الفائدة من بناء كل هذه العمارات. أنا، أنت، لسنا إلا مسافرين».

لأُشنَق بعد هذا إنْ لمْ يعرف من أين تُؤكَل الكتف ! لا يُمكن لمثل هذه الأقوال أن تسقط من شفتيه بحكم الصدفة وحدها، أنا أخوه، لقد أدرك ذلك، وفهمه من الوهلة الأولى. تفرّسته، تأملني هو أيضا بهيئة هادئة : لا يُشغل رأسه بجنس الملائكة، ربّما كان يتساءل عما يمكنني الإجابة به. لا أقول نعم ولا لا، كانت عيناه العسليتان شفافتين إلى حدّ لا يمكنني التأكّد إن كان بإمكان قراءة نية في النظرة التي يحطها عليّ ؛ بل أكثر من هذا، هل كان فعلا يحط بصره علي. حتى ولو لاحظت في تلك النظرة آثار سخرية غامضة، مثلما بدأت أعتقد، فقد تبخّرت في ذروة العواطف الغريبة. على كل حال، كانت السخرية ستكون زائدة، بل في غير محلها، على هذا الوجه البسيط والمتوسط الخشونة، ربما لا يكتسي حوارنا المعنى الذي ألبسته إياه، ولا يمنح الشخص الذي يوجد إلى جانبي الإحساس بأنه عرضة لمثل هذا القلق ولا، في هذه اللحظة بالذات، أنه ينتظر إجابة. أو أنّه يشبه الشخص الذي يعرف عما يتكلم وليس بحاجة إلى إجابة – ربما لا توجد إجابة له، لأي شيء، ولكن أسئلة فقط.

ربّما لهذا السبب الأكيد، ودون أن ينتظر مني جوابا، استخبر : «ألهذا النهر اسم ؟ كيف يسمى ؟

– ماذا، ألا تعرفه منذ كل هذه السنوات التي قضيتها في هذه المدينة. الصْلان.

– الصْلان. يسيل. يعرف هؤلاء الناس فعل كل شيء، حتى إيجاد اسم مماثل لهذه المياه التي تسيل أمام أبوابهم. إنّ علمهم شاسع كما جهلنا تماما».

من جديد حطّ عليّ خريفَ عينيه المُهوّى، الفارغ : « ما جدوى كل هذا الذكاء، ما جدوى كل هذه الاختراعات ؟

– كيف، ما جدوى كل هذا ؟

– نعم، ما جدوى كل هذا ؟ لكسر رؤوسهم ؟ هذه هي متعتهم. خذ هذا المثال، يبنون منازل عالية جدا لا تكاد تقف من أجل متعة تركيب هذه الآلات العجيبة التي يسمونها مصاعد. أمعقول هذا ؟

– هذا معقول جدا. كيف لهم أنْ يُسكِنوا الجميع... وأنتَ أوّلهم...

– ليس هذا إلا ذريعة. إن فكرتهم الحقيقية، الفكرة الراسخة في رؤوسهم، هي أن يفعلوا بشكل مغاير للفعل الطبيعي.

أفترض أنّ حياتك مريحة نوعا ما في هذا البلد.

افتَرض، افتَرض، سامَحك الله، وإلا ماذا كنتُ سأفعل ؟ أكيد أنّني لن أَجد أحدا أتسوّل عنده. لقد أخفوا جميعَ فقرائهم».

ها هي ضربةٌ إضافية على باب قلبك مِن هذه اليد الغريبة، **لقد أخفوا جميع...** الحفرة : راودتني فكرة الحفرة من جديد، ننشغل بما يمكن أن ننشغل به، نترك بعض الأفكار تنام، نظن أننا نسيناها، وفجأة، عند منعطف جملة، تُذكِّر بنفسها لك، فتعترف بإزعاج، أم بدهشة، أنها لم تكن نائمة بشكل كلي، وأنها واصلت حديثها لك بصوت خفيض، قريبا أو بعيدا، يحدّثك صوت، دون أن تعرف مصدره، ولا هويته ؛ أمدّ سمعي، تصلني منه مقاطع : «... ما جدوى أن نربَح كثيرا في هذه اللحظات ؟ وهؤلاء، الذين يسكنون هنا، كيف يدبّرون أمرهم ؟»

ركّزت قليلا، انتابني القلق :

«لماذا ؟

– لأداء الصدَقة ؟

– آه، الصدَقة».

من جديد، بقيتُ دون إيجاد ما أجيبه به، بَحثت، وها هو يكرّر في لغتنا بأمل أن يجعل حديثه مفهوما أكثر : «الصدَقة..». قلت :

– «هذا هو التقدّم. ما أجمَل أنْ نرى جميع البلدان قد تخلّصَت من البؤس».

لمْ يُضِف شيئا – ولا أنا بعد جوابي البائس. ما العمل، لا أملك الكلمات اللازمة لأتحدّث لشخص مثله ؛ سواء واصل أو لم يواصل هذه المحادثة، كانت المدينة ترعد حولنا بلا فائدة، لا أعرف، ربما وقع في شبه حلم، كما لو أنّ شذرَة من الليل، شذرة من الخطر وقعت عليه في وضح النهار. سيدرك قريبا، أم أنه لن يدرك، أن الأمر يتعلّق في نفس الوقت بشذرة من الموت : عليه، حوله ؛ إنه رعية عالم آخر، عالم تلمع فيه شمس أخرى، ويبدو منفيا تحت شمس جرفير بحيث لا يمكنه تجنب تلقي شذرة على كتفيه، وتدقيقا شذرة الليل والموت التي أراه ملفوفا بها في هذه اللحظة، محمّلة، كي يزيد وزنها، بالظل المدعّم الذي أعكسه عليه والذي سيحمله معه في غفلة عنه كمرض مجهول. –ولكن ليس ما يبحث عنه هو ما يريده دائما، كيف أقول له هذا وأجعله يفهمني، وأنّ العالم واسع جدا وأنّ أناسا كثّرا يتيهون فيه، بدا لي غريبا في ألفته، في أخوته، بحيث لم أجد بداخلي أيّ أثر لنظرة الروح التي كان ينظر إليّ بها، لم يأت من أيّ مكان، ولا يفسح لي أيّ مكان، مهما كانت قرابتنا، هو مني، وأنا منه : لا أجد مكانا أحطّ عليه بصري، أريحه، وحينما استأنف كلامه بالكاد كنت أسمعه، هو أيضا لم يأت من أي مكان ليقول لي، وما أحسست به كان ممتعا : « سأتحوّل إلى متسوّل، فقط من أجل صداقتي لأهل جرفير».

طبعا ! حول ماذا دار السؤال منذ البداية إن لم يكن حول هذا، وحول هذا فقط : الفقراء من جميع الجهات يشترون هذا العالم، ولم تكن في مقدورنا إمكانية إبعاد السؤال، ولا إمكانية التهرّب منه، نحن دائما في قلب السؤال أبعد ما نكون عنه مثلما يحدث لنا أن نفكر أحيانا ؛ حينئذ خفض عينيه باتجاه عقب السيجارة الذي يسحقه ويعيد سحقه بطرف حذائه، همس، ولم أدرك جيدا نبرة صوته مع شلال السيارات المزدحمة في أذنيّ : «اسمَح لي، أريد أن أطلب منك شيئا ؛ اسمك.

– نملك جميعا أسماء لا ينبغي الكشفُ عنها، لأنّنا لو كشفنا عنها..».

شحب وجهه قليلا تحت الأثر الذي أحدَثه فيه جوابي، ثمّ ابيَضّ كلية حينما واصلت : «أيّ اسم تريد أن أمنحه لك ؟»

ربّما كان الوقت سابقا جدا لأوانه كي ندفع بالأشياء بعيدا، ولكن في هذه الحالة، يكون الأمر دائما سابقا لأوانه، وبالتالي متأخرا، لقد طُرح السؤال، سؤال جديد، بسعة أخرى ؛ ليبقى في ذاك البعد البعيد ! لا يكاد يرفع عينيه الآن.

«اسمَح لي»، إنّها الكلمة الوحيدة التي تسرّبت بين أسنانه، ولم يضف لفظة واحدة. وبدوري لم أضف لفظة أخرى، ماذا يساوي الكذب، أو ماذا تساوي الحقيقة، لمن ذهب إلى مثل هذا البعد ؛ لا، ليس هذا، ليست هي الطريقة الدقيقة التي ينبغي أنْ يُقدَّم بها الوضع، يجب القول : ماذا تساوي الحقيقة لمن ليس بحاجة إليها وأشعر بالنظرات التي يرميها وتنزلق عليّ،

على وجهي، مثلما يمكن للأيدي أن تنزلق –يداه، لمَ لا ؛ يداه كما يمكن أن تنزلق على جسدي في تلك الطهارة الأخيرة، ذلك الغسل الذي يسبق الدفن، وكانت ستنزلق بهذه الكيفية على كامل جبل الحقيقة والكذب الذي أمثله، كانت ستتمدّد من طرف بلد الموت لطرفه الآخر والذي أكون قد فتحت له الأبواب. هل باستطاعتي إهماله الآن ؟ رخصة الدخول، هذا ما منحته له لبضع دقائق، دقائق سريعة جدا، منحت له اللجوء في عالم آخر غير عالمه الخاص، عالم تلمع فيه شمس أخرى، إنها شمس الموت ؛ لم يكن يملك بيتا، ولا بلدا، ولا أرضا يضعها تحت قدميه، والآن لا اسم له، ويتساءل عمن يذهب للبحث عنه، للبحث عن الرجل، الذي يتصوّر أنه لا يزال يجسّده، وسيعثر عليه ويسترجعه ؛ أراه مثلما هو، لا هارب، ولا ناج بأعجوبة، ولكنه شخص يجهل وجوده، أراه مثلما هو ومثلما كان في كل وقت : رجل عادٍ منطفئ بداخل ملابس عادية ضيّقة مثلما نصادف في أي مكان ؛ الآن بإمكاني إهماله : هل يهم كثيرا لشخص ما أن يعلم أنه يعيش بعيدا، في مكان ما، تحت شمس يمكن أن تكون شمس الموت ويسمع لمن يؤكّد له ذلك حتى وإن كان يعرفه، أو أنه ببساطة يعرفه دون معرفة لأنه يوجد في زاوية الشعور حيث نعرف الأشياء دون معرفة : بعد ذلك قال، كما لو أنه يحفظ من الذاكرة، وقد بدأ قبل حتى أنْ أبدأ الاستماع إليه : «**وَإِنَّه على ذَلك لَشهيدٌ**» «**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ**».

رأى هذه المرّة أنّ بإمكانه الذهاب فذهب ؛ أهملته، سلّمته لهذه المدينة، بقامة أصغر مما بدت لي لحظتها، ومثلما يظهرون جميعا، بذلك اللون المتردّد الذي تحمله بدلته التي يشكّل الآن معها شيئا واحدا، أبعد من أي موت، ليس شابا ولا شيخا، عرف أو لم يعرف أنه ذهب في حقيقة الأمر سعيا عمّا يبحث عنه الجميع...

... أنا الآن عاجز عن التمييز بين ما حدث فعلا وبين ما لم يحدث لي أبدا، أنا... ولكن فجأة انطلق شيء ما في ضحكة صاخبة، شيء ما، ليل بلا ليل، القمر الأبيض في سماء بيضاء ؟ عالم النوم المُقرف، ربما آييل. آييل في عمق ذاتها. انطلق فجأة في ضحكة صاخبة، وتوقف فجأة، سارت في جسدي رجفة، ضربت على ذراعيّ بيديّ المتقاطعتين، تجمّدت دون أن أشعر بالبرد.

«ما هذا ؟

– إنها..».

لا تنهي آييل جملها. لا تضيف شيئا، ولا أحاول كسر صمتها، أتساءل : «ربما يختفي شيء ما تحت هذا الصمت». قلت :

«طيور الليل.

– شيء مُحتمل».

تساءلت عن أي نوع من الطيور.

... وأشعر أنّ شيئا ما يراقبني.

... وأستيقظ بإحساس رهيب أنّ شَخصا ما يَنظر إليّ بصرامة.

... في الحلم، حلم الذي لم يحدث.

.... ما حدث بعد ذلك، الحلم الذي نراه جميعا والذي يقول أنّ الذي حدث لم يحدث.

آه، إنّهم هنا جميعا، دوديرك، طاليلو، فولدراغار، الخادمان، القديم والجديد، روكا، ساسكور، الموسيقار، آييل، شكلوا محكمة، يديرون الجلسة، يحاكمونني. آييل هي التي تتكلم الآن :

«سنقودك إلى هناك، إنّها العقوبة التي نسلطها عليك».

فكرت : ماذا، الحفرة ؟ حكم عليّ بالرمي في الحفرة. ولكنني لم أقل شيئا، انتظرت البقية. جاءت على شكل بوح تمّ همسه في أذني :

«قمت بكل شيء من أجل هذا. على الأقل ستكون لي إمكانية الذهاب لرؤيتك من فوق الأسوار..».

إما أنّ محاكمتي انتهت والحكم هو الذي صدر، وإما أنني في بدايتها ؛ إما أنّها بدأت منذ زمان طويل ولم تنغلق بعد.

... ولن تنغلق أبدا.

... في الحلم، حلم ما لم يحدث، ولكننا نتصرّف كما نريد كي يحدث الذي لم يحدث. واصلت آييل الآن بصوت مرتفع، مرتفع جدا :

«... إن من يكتشف السرّ، يدفع الثمن غاليا. بكل تأكيد !»

... لا، إنّ هذا **بكل تأكيد**، أضفته أنا من عندي ؛ في الحلم، نفس الحلم.

تكلّم طاليلو أيضا، آييل واقفة، ولكنه كان جالسا، والدماء التي تقيأها جرحه تلوّث له جانبا كبيرا من وجهه. تتسرّب الكلمات من هذا الركام من اللحم الصلصالي، الشفاف أحيانا كالبلّور، كما لو أنها تنتمي إلى شخص آخر، تخرج من شخص نقي. من المؤسف أنّني لا أسمَعها. تواصل آييل خطابها من فوق المصطبة ولكن صوتها أيضا توقف عن الوصول إليّ، فبقيت لي متعة (لا تنضب) رؤيتها، التفرّس في وجهها، ذلك الوجه المثلث، وذلك الأنف المعقوف قليلا في طرفه، الرقيق، والفم الممتلئ، والشفتان الطريتان برسمهما الدقيق المنطلق، والجبهة العريضة، المنتفخة، كل شيء غير منضبط في هذا الوجه، مع أنه يزيدها جمالا، بل وأكثر من الجمال انطلاقا من اللحظة التي تلتقي الأبصار، فأواجه هاتين العينين الخضراوين اللتَين تُغنّيان وتُغيّران اللحن باستمرار كما لو أنّ عيونا أخرى تختفي وراءها وتغني ألحانا أخرى وأنّ الفضاء الذي يفصل بينها كان أسود اللون والشمس قلب حالك السواد داخل هذا الفضاء. (إيد،

أنا زوجتك السوداء وأضبط ساعتي، قريبا ستحمل اسمي، قريبا ستحبك عشيقتك الوفية الوحيدة ؛ ابدأ بنزع ملابسك، ابق عاريا، غطاء الجوخ ناعم ودافئ، سريرك مهيّأ، وشفتايّ مبللتان بتلك الريح السوداء وستمسحهما شفتاك، وأنت أدرى بذلك.)

... أشهرَت حزمة أوراق، أعلنَت، وفجأة سمعتُها تقول :

« ... الأدلة ؟ ها هي. جميع هذه التقارير التي أرسلَها هناك، إلى ذويه، في هذه المدينة أو هذا البلد، من يعرف، إلى أُرْسول ».

... فكّرت : هناك، في أُرْسول، مدينتي، لقد بعثت برسائلي إلى هناك فضاعت، وأجدها هنا، في هذه المدينة، بعد شهور عديدة، بل بعد سنوات، حاملة لكَمّ هائل من المعاني والظلمات اكتسبَتها خلال رحلتها الطويلة، زيادة على تلك القديمة، فلا يمكنهم إذن إلا محاكمتي وإدانتي.

... أو على الأقل الاستعداد لمباشرة تأويلات عديدة.

... الاندهاش ؛ الآن فات أوان الاندهاش، لقد حدث الذي حدث.

... فقط ما حدث ولم يكن حلما : هذا الذي ينتظرني فيما كنت أنتظر أمام بابك، آييل ؛ ولكني أفتح وأدخل. ظَنَنْت أنّي تعرّفت على الشقة، ومع ذلك لم أجد أحدا بالداخل، وفي لحظة ارتباك قلت بصوت عالٍ : « ألا يوجد أحد ؟ »، الأمر الذي أظهر

مجموعة أشخاص أشاروا إليّ بكيفيات مختلفة أنّني مُخطئ، ليس هنا، لستَ عند... أقدّم اعتذاراتي وأهرب. في الخارج، بدا لي كما لو أنّ المدينة تغيّرت، ولكن هذا ليس شأني ؛ أنا قضيتي هي فتح الأبواب، والإسراع إلى ذلك وإلا...

... أبواب، أبواب، كثير من الأبواب، والدخول في كل مرة إلى شقة مماثلة، ونفس الأشخاص يقولون لي أنّني مخطئ، ليس هنا، وحدها المدينة تتغيّر في الخارج، تتعدّد، ولكنّي أعبرها كلها، يجب عليّ عبورها، لأواصل رحلتي. أواصل سفري حتى وإن لم يبق ساكن واحد بها ولا نفق ولا رصيف ولا أروقة مغطاة، تحتأرضية أو سماوية، شوارع، أزقة، ساحات، أواصل السفر مهما كان الثمن، داخل نور ينبعث من الأشياء، يجمّلها ويحرقها في آن واحد، نوع من الإنارة الخضراء، مشتعلة إلى الأبد، تنير دون أن تحترق.

ثمّ أشرف على ساحة بأفقية خالصة. ناطحة سحاب في العمق، ولا شيء آخر : اقتربت منها، ومباشرة أصعد واجهتها على قدميّ. فتدفق عليّ من جميع الجهات سيل من المحادثات والشجارات والأغاني والشكاوى، إلا من غرفة واحدة، نخروب في خلية، حيث يقف شخص بلباس أسود تحت مصباح كما لو أنه تحت شلال من نور، يغطي وجهه بكلتا يديه، والتي نزعها في تلك اللحظة كي يختلس نظرات خاطفة باتجاه الباب، فيركض ويفتحها قليلا، يختفي بسرعة، يبحث عن مؤقِّتَة الإنارة عند مدخل الشقة، يشعلها، يصل إلى درج العمارة، ولكنه بمجرد

الوصول تخيّم الظلمة على المكان، ولا تشتعل مصابيح أخرى في أي جهة، فينزل الدرج في الظلمة، نسمعه يهبط، صوت تتراجع أمامه جميع الأصوات، تندثر الواحدة وراء الثانية ؛ ومن جديد تلك الساحة، الساحة العظيمة بلا أي شيء، غارقة في شبه الظلمة نفسها. ومع ذلك، هناك في الوسط، في ظلام أكثر، يثرثر شيء ما ويضحك، وأفكّر : ينبوع ماء، كيف لم أنتبه إليه من قبل. تقدّمت، ميّزت شبحا بنفس السواد، يكاد يلتبس مع الشيء الآخر. ينبوع الماء(؟)، الشبَح، أواصل طريقي، تقدّمت نحوهما، بدأت تتسع الساعة، يُبتَسم لي من تلك الظلمة، لا أرى تلك الابتسامة، إنها في الجوّ.

... فكّرت : امرأة.

... فكّرت : آييل ؛ وفي اللحظة التالية انتصبَت في آخر عمق الساحة، حيث تواصل ابتسامتها. فركضت نحوَها مباشرة، لا توجد أبواب للفتح. في تلك اللحظة، زحف حشد للقائي. حاولت يائسا شقّ طريق وسطه، أكافح، ألعب بالذراعين وبالمرفقين، أعوم داخل الأجساد، تمكنت من الوقوف على أصابع قدميّ لأرى إن لم أفقد آثار آييل. (لم يكن في مقدوري أنْ أتصوّر أنّ الأمر يتعلق بشخص آخر.) إنها النهاية، غرقت وسط الحشد. ثمّ فجأة، بَدأ جميع هؤلاء الرجال وهذه النساء، الأفواه والعيون فاغرة، يبتعدون من حولي فيما كنت أتقدّم ؛ حرّا. لقد جرى المشهد على هذه الطريقة : في البداية، ألقوا عليّ نظرة ولم يروني مثلما لم يروا شيئا، ولا أحدا ؛ وبعد

ذلك رأوني، فتشنّجت تقاسيم وجوههم وتسارعوا الواحد خلف الآخر نحو أولى الفتوحات التي عثروا عليها، مثل مداخل المحلات والعمارات والمِتْرو ومواقف السيارات التحتأرضية. لا أعرف ما الذي أرعبهم في وجهي أو في جسدي، ما هو الرأس الوحشي الذي أحمله لهذا العالم، لا أستطيع الجواب على هذا السؤال، وأكيد أنهم لن يأتوني بجواب لأنهم اختفوا بأسرع ما يمكن. من جديد، أصبحت المدينة بلا سكان، أصبحت بكماء. ولكنها ليست طرشاء ولا عمياء : بكماء ومترقّبة، أو منتظرة، ولم يبق إلا أنا وهي، أو هي وما أصبح حضوري يمثله. لمْ تدُم هذه المُواجهة طويلا، خلسة، ارتسم شبح في أفق الخط المستقيم. شبَح بَدأ بحركات راقصة، واحدة، اثنتان، ثلاثة، ثمّ تجمّد، باشر أخرى وتجمّد من جديد، فكان يتقدّم كلما استأنف حركاته. تسمّرْت في مكاني، أنظر إلى الشبح المُقولب مثلما هو في تبّانه الأسود، أنظر كيف تتموّج ذراعاه المؤثرتان. يتقدّم، دائما بأوقات توقف، ولم أنتظر، لم أقاوم، فانطلقت وصرخت : «لورا !»

... أو فيرا. لا أعرف، لأنّ في تلك اللحظة دخلت حيّا كان جَوُّه يشعّ بحيوية قروية، وسكينة تنبعث منها روائح المروج. في نفس اللحظة مرّ قرب ظهري الشبح، صاحب التبّان : التفتت، كان قد اختفى، لا، كان بصدّد عبور مفترق الطرق والدخول إلى عمارة. ابتهجت، سأمسك به إنْ دخل هنا. بدوري دخلت العمارة، كان مصعد يحلق تحت عينيّ باتجاه العلا ؛ قفزت بداخل مصعد آخر، غادرته كما الزوبعة، ذرعت الأروقة

بسرعة، فتحت أبوابا، ثمّ أبوابا وأبوابا، الشقق متشابهة، هي نفسها دائما، إلى غاية الأزهار المعروضة في المزهريات. ولكن بمجرّد أن ولجت إحداها استقبلني شيء، بل أفضل : أحاطني ؛ إنه أشبه بعطر، ولكنه ليس عطر أزهار، يتعلّق الأمر بشيء مختلف عن عطر، إنه عطر حضور، وفكّرت : لقد مرّت من هنا منذ قليل، إنها الآن توجد في الشقة المجاورة ؛ أسرعت إليها، ولكن لا شيء هناك، ولا أحد، فلم يصادفني إلا حضور ذلك العطر، بهذا الحضور، نعم الشبيه بالعطر، وبدأ الإحساس بالفشل يمسك بتلابيبي. الآن، أكسّر جميع الأبواب، بابا بعد باب : بقوة خارقة، قوة وحش لم أتصورني قادرا على إفرازها، أدمّر أبواب طابق، ثمّ أصعد إلى الثاني، أدمّر أبوابه، وإلى غاية الطابق الأخير. العطر هنا، ولكن لا أثر للحضور، وقفت أمام خليج، أتأمل الجوّ الشبه مظلم حيث تسبح المدينة، لم يتغيّر المحيط، ربما لن يتغيّر أبدا. من إحدى العمارات المقابلة، شخص ما، امرأة ؟ تشير لي بالذراع. لا أفهم ما تريد قوله، كانت الإشارات بالنسبة لي تعبّر أكثر عن الحنين الخامل. بقيْت وقتا أنْظر إليها تقوم بتلك الإشارات، تدوم هذه اللحظة دائما.

... عيون آيبل أشبه بينابيع النور التي لا نرى منها إلا النور : أطلب منكم سادتي القضاة، إن كان النور شيئا يمكننا تثبيت نظرنا فيه.

... روكا، القاضي الوحيد من بين قضاتي الذي بكى. الآن، بعد أنْ لمعَت عيناها من ندى الحزن، جفّت، لم تعد تبكي، لا تستطيع البكاء، لن يذوب جليد عينيها. ليس لها وجه. كما أنّ ليس لها عيون للبكاء. انقطع نورها.

... لا يمكن لأحد أنْ ينام في مثل هذه الليلة.

... ذات يوم، يجب علينا أن نقطع هذه الشمس. كما شمس القمح الناضج.

... مثلما سيرى نفسَه، مثلما كان يرى نفسَه. لا، مثلما يرى نفسه الآن، في هذا المكان، على هذه الساحة، ولكن في مكان آخر، في مدينة أخرى – أيّة مدينة ؟ مثلما ينقل بصرَه من شيء إلى آخر، ثمّ إلى شيء آخر، ولا يفهم، ماذا جاء يفعل هنا، وبالأخص ماذا جاء يفعل هنا في مثل هذه الساعة من الليل ؟

... مثلما يفكّر. مثلما لا يرى أيّ تفسير. يُحاول العودةَ على خطاه، يتذكّر، ينطلق (ذهنيا)، وها هي الأزقة نفسها، المعابر نفسها، وهو متأكد من أنّها الطريقة المناسبة لتتبع خيط ذكرياته، ولكن لا شيء حدث، لم يتمكن، وستكون ليلة أخرى.

... مثلما سينتظر قبل أن يفتش ذاكرته أو هذه الليلة أيضا، ومثلما لا يكون إلا انتظارا، انتظار ليس فيه إلا الفراغ، فراغ ليس فيه إلا الانتظار، غرفة الصدى حيث ينتشر صوته فجأة، أو صوت آخر.

حيث تستفسر وهي مجهولة :

«من أنتَ ؟ ما اسْمُك ؟ قل !»

ولا يأتي أيّ جواب دائما. لا يعرف الشخص من هو. ولا يعرف اسمه. ومثلما يتأمل نفسه إلى غاية العمق، سوف يتساءل وسوف لن يتذكّر. في البداية قد يعود إلى هذه الساحة، ستتوتر أعصابه، ولكنه لن يتذكّر.

... مثلما يمرّر ظهرَ يده على جبينه فيشعر بنفسه في حالة أحسن، أحسن كثيرا، سوف لن يقول العكس. وماذا بعد ؟ وبعد، ما العمل ؟ فتّش جيوبَه، أعاد تفتيشها، جميع جيوبه، جيوب السترة الخمسة، وجيوب السروال الأربعة، تسعة جيوب في المجموع، لم يجد إلا الأوراق النقدية، هي نفسها في كل مرّة، أربعة قطع سميكة. ولكن ليس هذا المساء، ليس هذه الليلة، سيكون مساء آخر، ليلة أخرى. أوهَم نفسه بالتفكير، ضاع في تأمل الساحة الشاسعة. هذه الساحة نفسها، مجرى الرعد نفسه المعلق بإنارته المفرطة، وتنوعها اليومي المتمرّد، التنوع الذي يزن هنا كما في المدن الكبرى، بعد مرور جميع الساعات، في بعض الأحياء. ولا ينقصها حتى الحشد الضروري، ولكن ليس هذا المساء، ليس هذه الليلة. يوجد الحشد (بخلاف رأسه المسكين)، يوجد الحشد، وهو خارج الحالة التي سيقرّر فيها إن كان مندهشا أم لا، فكّر : «سوف لن يكون عدد أكبر من الناس في منتصف النهار»، ملاحظة تجرّ أخرى في سياقها : «ولكن سوف لن يكون هناك نفس الأشخاص». إنّ الأشخاص الذين يصلون إليه دون انقطاع ويتجاوزونه هم من طينة أخرى، لا هي مماثلة، ولا هي مختلفة.

... مثلما انتابته رغبة البحث عن التسلية، مخالفا لأي توقع، أو عن أي شيء آخر، ما يمنح تبريرا لهذه الصحافة، أن يجد، أن يرى ما يُعرَض من تسلية في المحيط القريب، ليس بالبعيد أو حتى في مكان آخر، لكي تظهر هذه الليلة المتوهّجة أخيرا على ما هي عليه، ليلة موعودة لحفلة بلا اسم. ومثلما يفكّر، مثلما بدأ شكه يتضاءل شيئا فشيئا بأنه هو أيضا قد تمّت دعوته إلى الحفل، وبأنه لم يسقط هنا بالصدفة، أكيد أنّ مكانا قد تمّ حجزه له، مكان ينتظره، أو كان ينتظره.

وغادره الهلعُ الذي سكنَه، الهلع المقلق، الاحتضار الأصم الذي ألصقه، جمّده في هذا المكان، في لحظة ما، اتخذ كل شيء مظاهر لعبة تتواصل وتتوالد من لعبتها الخاصة : «ولكننا لا نعرف كيفية الدخول إن لم نكن نعرف كيفية اللعب». بداية مَن هُم هؤلاء الناس، هؤلاء الضيوف الليليون الذين تجذبهم حفلة الاستقبال، فرادا وأفواجا، وهُم يتكاثرون دقيقة بعد أخرى. مثلما يضحك (صمتا)، إنّه الجواب الوحيد الذي استخرجه منه هذا النوع من القلق. مثلما يُقرّب ساعتَه اليدوية من أذنه ويقتنع بأنه داخل وضعية قد تخلق له وساوس أخرى، شيء فضيع حقا، الساعة تدق، فقرأ منتصف الليل وعشر دقائق. «شخص ما، في مكان ما بالداخل. الشخص الذي دعانا».

... ومثلما عاد بقوة، انتابته من جديد هزّة الضجر النائمة. وبما أنه ألحّ على تكرار **شخص ما، في مكان ما، بالداخل**، تحرّر من هذا الهوس، هذه المرّة أيضا ؛ ظنّ أنه تحرّر منه فعلا ؛

ربّما لأنه طفق ينظر إلى السيارات التي تتتابع بفظاظة وهي تكاد تلامسه ؛ لأنه بدأ يعدّها : «أظن أني أعرف ما هي ؛ سيارات..». انتابته راحة كبيرة لهذه الفكرة، اعتبرها نصرا، بل أحسّ بنرجسية مُرضية. تساءل إنْ كان يملك واحدةً بدوره، فلم يعرف كيف يجيب.

... كيف يجيب ؛ مثلما لم يعد يستطيع مفارقة هذه الهياكل البرّاقة بعينيه وهي تتسارع، تبحث عن طريقها وتعثر عليها بلا هوادة، ولا أن يمنع نفسه من تأملها وهي تتتابع بلحظات توقفاتها التي لا تكاد تُلحَظ، يتجاوز بعضها بعضا بإرادات بارزة، في تجاوزات وملاحقات وتواصلات متشابكة، وهو يبقى منغرسا أمام هذه اللوحة الجامدة في سرعتها المنحرفة فينتابه إحساس بأنّ رغباته العميقة حقّقت في هذا المشهد سكونَها وإرواء عطشها.

... وتتجشأ المدينة في الأعلى، ومع ذلك فهي ليلة أخرى، فتواصل إلقاء خطبها على هذه الليلة بالعناد المتصلّب لثور بريّ، آه على تلك الروائح التي لفّت بها نفسها، والتي ستشكّل حتما نفَسا جيدا ليرافق هذا التفخيم، فتصرخ، لتحرمه من كلماته، تسرقها منه : «شخص ما. في مكان ما في الداخل. ذلك الذي دعانا. هو سيتعرّف عليّ ! « ومثلما ستضحك بملء شدقيها، ستمضغ الضحك والكلمات ومثلما هي روائح فوهات المِتْرو المثيرة للغثيان، والإسفلت الملوّث بالروث، وصمغ الملصقات القوي، وأنابيب انفلات الغازات. النفَس الوحيد،

وهو الحقيقة الوحيدة، هذه الكتلة اللامبالية، المبتلعة إلى أبعد حدّ يمكن تصوره ؛ بقرقراتها وفوضاها. أنْ تُعرِّف نفسَها بصفة آكلة لحوم البشر. بشيء يُبتلع ثمّ يُلفظ من تلقاء نفسه في ضوضاء يتكرّر بلا كلل ؟ الحفلة. أيّة حفلة ؟

«**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ**» يلتفت، هل رتِّلَت هذه الكلمات على أذنيه ؟ ويتقدّم، يجرفه التيار، بصره مُصوَّب على أنواع من الإنسانية سيتعايش معها طويلا : يبحث ولا يكتشف من هي، ولا يتصوّرها. شخص ما، وسينسى. سينسى إلى حدّ الكلمات، مكتفيا بحطّ عينيه على هؤلاء (مثله) المدعوين لهذه الليلة، بسُحن وجوههم المنغلقة، البعيدة، وسينتقلون جميعا، فتيانا وفتيات بشعورهن المنطلقة، عبر تلك الخطوات المتشابهة عند الجميع، من أولهم إلى آخرهم، في اندفاع لا رجعة فيه وعلى وتيرة واحدة، وهو مرتاح لأنّه لم يبرز من بينهم أصحاب الرؤوس المحلّقة، ولم ينبثق من عمق الظلام ذئب بعيونه الشيطانية، أو مخدّر سيختفي بمجرد ظهوره. وسيترك جميعَ هذه الكائنات تتقدّم باتّجاهه، شاهرة رايات أعيادها، عصيّ شقراء، أو شعور مفرّقة بخيوط في وسطها، تعليقات قساوسة، وفجأة بدا شيء كما الضحكة التي توشك على الانفجار، ولكن ينتهي كل شيء قبل حتى أن يدرك هويته، فلم يعد محل تساؤلات.

هذا والباقي. هذا، وإحساس بجثّة نجرّها خلفنا. هذا، وتلك الرؤى، رؤى متكاثرة دوما تصادفه، تلامسه، وهو يشق طريقه،

يجب أن يشق طريقه. هذا، وعند كل خطوة، تنبثق رقصة متشنجة وثابتة من الوجوه الشاحبة، كما لو أنها خرجت من فيلم قديم. هذا والنوع الكبريتي، المذهل، الجاف نهارا حيث يتراقص الكل، ويختلط في نوع مزيّف، نوع لا نراه يفيض من حدود وإطار الفيلم ليتقمص حياة ما في لحظة أو أخرى.

... مثلما يشعر بنفسه مُجبرا على الاستعانة بها رغم كل شيء، بهذه الأجساد المثيرة للغرابة، ومثلما يبادر إلى الفعل، فلا يجد أيّا من تلك الكلمات التي تقول ما يجب قوله، فيكون من جديد عرضة للانتظار، والفراغ. سيخوض معركة، ولكنه وحيد، في حقل بري، في صحراء. سيصرخ من عمق زنزانة بلا جدران، وستقبض هذه الزنزانة على أفضل سجين لديها، سجينها الوحيد الأوحد وستضيع صرخته في صوت خارج مجال التغطية والتي تباشر بالصراخ هي أيضا : «**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**» صَوت يبدو كما لو أنّه بلا صوت يأتي من بعيد، يشقّه وينطلَق بعيدا. وستكون أكثر فعالية، قوية ولا رجعة فيها، لم يسبق لأحد أنْ سمع مثلها، صوت يتعالى ويجبر الليل على التزام الصمت، فقط لإلقاء هذه الكلمات.

يتأمّل محدّثه في العينين. يُصرِّح هذا الأخير في اندفاع الجسد نحو الأعلى، وهي ليلة أخرى تبدأ، في مكان ما بالمدينة :

«يمكنك أنْ تعتز بأنك وضعت الأصبع فوقه، لي خمسون وبضع سنوات، عمر ثقيل أجرّه خلفي ولا يمكن إخفاؤه، أليس

كذلك، من الصعب إخفاؤه ؟ على كل حال أحسّ به جيدا. أبدا لم نتكلّم بحقيقة كهذه. ومثلما نمكث في السرير، يمكننا أيضا أن نمكث في القبر خلال خمسين وبضع سنوات. بكل حيوية، وبكل ما يوحي بالموت. لقد وضعتَ الأصبع فوقه».

وهو، لا يمكن منع نفسه من تفرّسه، محتارا، ماذا قال بالضبط، لا يتذكّر. هزّ جسمَه، أدار بصره بعيدا، من بعيد يرنّ الصوت في أذنيه. بَحث عن ملجإ داخل هذا المقهى، أصبح الوضع في الخارج لا يُحتمل، صداع الليل، الحشد، الأفكار. بحث عن ملجإ داخل هذا المقهى، اتخذ مكانا في مقعد في العمق. بعد قليل، أحسّ أنّ شخصا يزاحمه عن قرب، مثلما يحدث عادة، مثلما يحدث دائما، شخص ولا مبالاته، وأوهامه، ورائحته، وقوقأته، وكل ما تريدون. وهو، الذي يحاول تذكّر شيء ما فلا يفلح، فكان تحت رحمة ذلك الرجل، نوع من الخواجة، فباشر المحادثة هو أيضا ؛ ولكن إحساسا بالانهيار، مثيرا للرثاء، بدأ ينتابه رويدا رويدا. أما الخواجة الآخر، فلم يكن يفعل إلا القيام بردود بدت شبه طبيعية، رغم أنه ظهر عليه أنه لم يجد تصريحاته طبيعية. تتالى الباقي. لم يتصوّر أنه قال الكثير –هل أفرط في الكلام فعلا ؟– كي يستحق ردا بهذا الطول :

« أنا أبعد شخص يثير الشفقة. عندي كل شيء. شقّة بما تحوي : أثاث قديم، أواني فضية، لوحات زيتية، كتب نادرة، سيارة في المرأب. ليست صغيرة، بل كبيرة تلك السيارة. أسهم

في البنك، وربما نسيت أشياء، أكيد أنني نسيت. يوجد ما يملأ ويدغدغ خمسين وبضع سنين، ربما أكثر أو أقل لا يهم، بموت لطيف طويل. بموت لطيف جدا. لا أحد يعرف متى يحسن لقبورنا أن تُرجع أمتعتها، ولكننا متأكدون أنّ هذه الساعة آتية حتما. هذا ما كنتَ تنوي قوله ؟ لا تبحث بعيدا، لك الدليل، عفوا، الحيّ أمامك».

هو، لم ينبس ببنت شفة، امتنَع عن الكلام طوال تلك الفترة، وسيمتنع طوال الوقت الذي ستدوم فيه هذه اللعبة. إنّ الرجل الذي يجلس إلى جواره يتحدّث دون أن يهتم برأيه، ولن يجد ضرورة لفعله، يمكنه أن يبسط سجادة صالونه بكل أريحية، أن يظهر قاعة الحمام، أن يواصل مباشرة مسح المقهى بعينيه كما لو أنه يرى نفسه فيها، أو يعتقد ذلك، فيضيف قائلا :

« أتصوّر أنّني اكتسبْت حقّ إعلانه جَهرا، وإن اقتضى الأمر تكراره ألف وألف مرّة، الشيء الذي لا أمنع نفسي من فعله : أتأمّل مشهد حياتي في الوقت الذي أسدّ فيه أنفي أمامه، أثمّنه بازدراء. سبب جيّد للتخلص منه، أليس كذلك ؟ ولكن مَن وصَل إلى هذا المستوى فرَضيَ أنْ يفعله، هل يمكنك أن تقول لي كم عدد الذين حاولوا فعله ؟ أكيد أنّك تفكر بأنني أبحث عن حسن التخلّص، أنت مخطئ سيّدي، هذه ليست من شيمي، ومن حسن حظي أنني لست في هذا المستوى : لقد استوفى الشرّ، هل تفهم، استوفى تماما ».

هو، يستقبل هذه المناجاة بلا ضجر، إلا أنه عاجز عن تحديد الأهمية التي يوليها لها، أو أنّه سيعرفها، سيميّزها بعد لحظات قليلة، نصف ساعة، أو ساعة إذا افترضنا أنّ... أنّه لا يرى الحيلة، لا يفهم أنّ تحت قناع يوجد ما يمكن لشيء ما (ربّما) أن يبدأ عمله خلال ذلك. خلال ذلك ؟ منذ فترة طويلة. من قبل. بغاية إبعاد انتباهه، تنويم شكوكه، مفاجأته دون أن يشك في أي شيء، أو قد بدأ يشك، فيعيش إحساسا بانعدام الأمن، ولا يمنع نفسه من التعرّف على الشيء البشع الذي ما فتئ يضطهده دون أن يجرؤ على تسميته (أما أن يسميه الشيء نفسه، فلا ينبغي انتظار ذلك، وبالأخص الآن، ولا حتى كأمل) ولم يكترث للأمر، لا يجتهد إلا لتسجيل كل كلمة، جميع الكلمات التي تخرج من فم هذا المهرّج كما لو أنّ جوابا أو ارتسام جواب، إشارة من شأنها أن تنيره، يمكنه أن يوجد بداخل ذلك القناع. كان جالسا بجانب على المقعد، لم يلاحظ شيئا، بينما واصل الثرثار خطابه، لا يكاد يسترجع نفَسه حتى ولو حرسته رغبة في البول أو بدت كذلك، حتى وإن كانت الحاجة إلى مواجهته تتطلب منه القيام بمجهود متكرّر وحركات مزعجة. إلى جانبه رأس يمنح له الفكان الضامران وهْمًا بأنه لا يزال شابا، ويتألّم لأنّه يدرك حقيقته. فلو لم تكن تلك العينان، لكان ذلك الرأس، برغم تلك العناية المفرطة كما باقي الشخص، شبيها بجميع الآخرين، بجميع فراغات المعمورة : ولكن هناك العينان وهما من الجليد، بالإضافة إلى أنهما شفافتان، تميلان من الأزرق نحو الأخضر، ثمّ من الأخضر

إلى الرمادي، رمادي عاصفة يميل نحو السواد، لكي تعود إلى زرقتهما العدمية، وتقومان بمجهود غير ملائم تقريبا لتجذبانك أولا ثمّ لتدفعانك بعيدا في الثانية الموالية. عينان من الخزف الحيّ، تثيران في نفسك إحساسا عصي الاحتمال، بذلك التيه الخفيف، فلا تلاحظان الناس ولا الأشياء، لتُسلِّطان عليك عذاب هذيانهما.

«ولا يدل هذا على أنّني تقدّمت أكثر، ولا أنني أستحق الظروف المخففة كي لا أكونه، يكون الأمر جميلا جدا. لا أريد إثبات شيء، أريد أن أقول أنني ببساطة هنا، وأن نقطة الوصول هي نفسها نقطة الانطلاق، وأنّ الانهيار، السقوط البطيء، قد حدث بلا قرقعة ؛ وأنني تحمّلت نفسي لمدّة طويلة، دون أن أطرح أسئلة، وأنني نسيت أنّ هناك سؤالا يمكن أن يُطرَح. ومع ذلك هل ينبغي أن أشتكي ؟ ما هي الأعذار التي يمكن لشخص مثلي أن يقدّمها، لا أقول في عيون الآخرين، ولكن في نظري أنا ؟ لا، لا أشتكي سيّدي، أريدك أن تكون شاهدي : لم أكن كذلك، ولم تكن بي حاجة لأكون كذلك، ولم أجد عذرا لهذا، وذلك خلال خمسين سنة على أقل تقدير، والآن «**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**» من يقول أفضل ؟»

لأبقى هكذا. أبقى فقط سماعا وحضورا. البقاء على هذه الحالة، ولا يجب الخضوع مثل السابق لرغبة التدخل في مناجاة الرجل، تلك المحادثة ذات صوت واحد والتي قادها مع نفسه، صوت يكلم نفسه ويجيب. ما أردنا الإمساك به أثناء

طيرانه تبخّر وأضحى دخانا : ذهب ولا نعرف إلى أين ؛ وسط الضوضاء المحيطة. إنّ الحدس غير القابل للافتراض الذي دخل سرا في لحظة ما لم يكتسِ إلا واقعا وهميا لأنه عبَر الهواء خلسة، هذا ليس مكانه. ولَن يكون مكانه أبدا، لا يوجد أي حظ لكي يحدث شيء ما، ولا حتى ظل لا شيء. ومع ذلك حدث نداء، أو إعادة نداء. مثلما يمكن للجواب أن يكون، ننهض دون أن نقول كلمة، نقترب من النادل الذي خدمنا، ندفع ثمن مشروبنا ومشروب الآخر، ذلك الثرثار المتبجح. وقبل أنْ نعتّب باب الخروج، نجد الوقت الكافي لإلقاء نظرة على الزبائن الجالسين غير بعيد، ولكن هذه المرة مقابلا له ؛ ينظر إليهم بنظرته غير المستقرة، المحفوفة بالمخاطر.

« أكنت حقا مَدار اهتمامه ولو للحظة.. ».

لا تغيير في الساحة ؛ بادئ الأمر هذه الساحة، بادئ الأمر هذه الشوارع التي تتيه بعيدا، بادئ الأمر هذه الليلة، ولكن لا تغيير في المدينة. ومع ذلك لقد تغيّر شيء ما، انخفض سيل البشر، خفّ الهواء، الهواء نفسه. إنّ حالة التوازن التي يصل إليها الليل حتما موجودة هنا، نشعر بها في أليافها الأكثر سرية، نشعر بها في اهتزاز قلبنا المظلم كما مُعجزة الاسترفاع في لحظة دوامها.

يتواصَل الوضع ولا نمرّ، نمسح بطرفة عين تلك الآفاق التي بلا عمق، المخرّقة بجميع تلك النقاط النارية ونتقدّم بخطوة، ثمّ ثانية ونواصل، تجرّنا الآن حركة الساقين الآلية وحدها، ولا

نتساءل أين نذهب، ولا عما نبحث، لم يعد هذا الأمر يثير اهتمامنا (سيأتي وحده، إن كان لا بد أن يأتي)، نتوجّه نحو وسط الساحة، أولا هذا الوسط، وسط استقبله على طريقته، هذه الليلة، أو ليلة أخرى، إلا أنها تبقى غير واعية، إنه اندفاع لم يكن ليفاجئه لو احترس قليلا.

كما لو أنّه أصيب برصاصة قضَت كل هذا الوقت لتلتَحق به. رآهما يصلان، يقتربان، يتأبّط الواحد ذراع الثاني مثل كثير من المارة، ولكنهما امرأتان، فكما لو أنه أصيب برصاصة قضت كل هذا الوقت لتضربه. فأضحى متأكدا بأنّه نسي شيئا. جاءَتا وسَط حشد لا تنقص فيه الجميلات، ولكنهما كانتا، ما هي العبارات المناسبة، كانتا مختلفتَين، تحملان علامة ؛ الشيء الذي نسيه. الشيء الوحيد، اليقين الوحيد. إنهما شعلتان متحركتان تحت الألوان التي تلفهما، ولا تختلفان بينهما إلا بالألوان ؛ زينة الواحدة تتكرّر عند الثانية، تجيب على الثانية في جميع التفاصيل، من الجوارب اللصّوقة بشرائطها الأفقية التي تعري السيقان وإلى غاية التبّان الجلدي الخاص بالذكور، هذا التبان الذي يُحمَل كحزام عريض، والصِدار الحريري الصغير الذي يشدّ الصدر، وبعد ذلك القميص ذو الأكمام الطويلة والسلاسل الذهبية المتدلية فوقه. ينتشر الشعر المجعّد بلونه الأسمر المحمّر، عند الواحدة كما عند الأخرى، على شكل مظلة ليؤطِّر وجها بيضَوي الشكل، مؤثرا، فيشع كل شكل بيضوي، فتي تقريبا، مسنن تقريبا، بلمعان يبدو أنه يحضّن تحت البشرة ويصبغها بهالة مهيبة. ينظر إليهما : الإحساس نفسه بنسيان عصي الإصلاح يفتح جرحه بداخله.

سَوف لنْ يتذكّر، إنّه يعرف هذا، لا يتذكر المرء في مثل هذه اللحظات، إلا إذا بُعث إلى لحظة لا توجد في أيّ مكان، لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا ينتظر مثل هذا السفر. ومع ذلك راقبهما مُحاولا أنْ يتذكّر. فابتَسَم ؛ يمكن للحظة التي لا توجد في أي مكان أنْ تكون هي نفسها اسما. وإنْ كان اسمُك الحقيقي ؟ أين نعثر على الحقيقي ؟ «نسيتُه. نسيتُ اسمي الحقيقي. كما نسيتُ الأسماء الأخرى». كان لا يزال يبتسم، فردّت الفتاتان على ابتسامته، كما لو أنهما تردّان على لعبة، لعبة مسلية. هل يُمكن أنْ يوجد مثل هذا عبر العالم ؛ ربّما لا. ابتسامة مماثلة. كما اسمه الحقيقي. واصل مشيَه نحوَهما داخل وهم حركة معلّقة بدت كما لو أنها زادت في انجذابهما نحوه. وصلتا إلى مستواه وفي تلك الثانية قالت كل واحدة منهما عبارة أتبعتها بصاروخ خفيف من الضحكات. لمْ يَفهَم ؛ وبعد ذلك، حينما أدرك أنهما تلفظتا بلغة مجهولة لديه، كانتا قد مرّتا، كانتا هناك في الخلف. التفتَ وراءه، كانتا قد ذابتا داخل الحشد بتلك المشية المطاطية. كما اسمك الحقيقي المفقود. كما النسيان وتمزيقه الأسود. ما كاد يواصل سيره وينظر أمامه حتى كانتا هنا من جديد، كما لو أنّ انفجارا صامتا حطّهما أمام عينيه. تتقدمان للقائه بروعتهما الدائمة، وجمالهما الفاتن. خاطفات الأرواح. الجوارب اللصوقة نفسها بشرائطها الأفقية، التبّان الجلدي القصير نفسه الذي يُحمَل كحزام عريض والصدار الحريري، القميص ذو الأكمام الطويلة، وفوقه السلاسل الذهبية، وزينتهما المكتملة التي ليست أقل لمعانا من السابق، بل ربما

أكثر. وبالداخل، الفتاتان نفساهما بشعرهما الأسمر المحمّر المتجعّد جدا بمظلته المفتوحة التي تُؤطّر الوجهَ نفسه مرتّين.

كانتا عائمتين في حديث متبادل، بمشاركة العينين واليدين وتقاسيم الوجه والتعابير، ومع ذلك لم تمتنعا عن إغراقه من جديد بابتسامتهما. لم يستعد للمواجهة هذه المرة، فلم يبتسم. اكتفى بالنظر إليهما، نظر إليهما وهما تتقدمان، فواصلت نعمة النسيان المتواطئة من جديد، مزدوجة، على مدى الصوت. وجّهت له هذه وتلك، متدحرجة في لغتهما الغريبة، كلمات ليست أكثر وضوحا من الأولى، فتمران قربه. مَخْرٌ شفاف من الضحك وكل ما تمكّن الهواء من الإمساك به.

لم يلتفت إليهما هذه المرّة، فقد أحسّ بهذا الإقصاء برفقة الليل وأشباحه وأضوائه وأصواته، إقصاء في فضاء آخر، بلا اسم. كان بإمكانه أن يفعل ولكنه امتنع، على كل حال، إنّ ما رآه ينبثق من صفوف الحشد كان سيمنعه من الفعل : الصورة، بل قل الرؤية التي حرمته من الشعور قبل دقيقة. تشكّلت من جديد على بعد خطوات : حضور، بروز الفتاتَين نفسيهما تمشيان باتجاهه وفي الزينة نفسها، والبرقشة الرخيصة نفسها –الجوارب اللصوقة نفسها، التبان القصير نفسه، الخاص بالذكور، الصدار نفسه، القميص نفسه، تسريحة الشعر نفسها، والحركات نفسها، مثلما فعلت مرة، أو مرات عديدة، تطلقان باتجاهه رفوف العيون نفسها، بزرقة مياهها الملوّث في لمح البصر بالاخضرار الحاد لعيون أخرى، لزوج آخر من العينين

الغائبتين ؛ ويكاد يقسم أنّها وجّهت له العبارات نفسها، دون أن يمسك بمعانيها. اقتربتا، مرتا، هما دائما، اقتربتا ثانية، ومرتا، شبيهتان بنفسيهما، تقلدان حركاتهما الخاصة، تكرّران أقوالهما الخاصة. استسلم لتعذيب ذلك الإغراء القاسي، الحاذق. ثمّ، وفي ذروة القلق، مثل مرآة تتكسّر في مكان ما، توقفت اللعبة، فانتصب الواقع بوجهه المتحدي، وجهه الساخر، مفتوح العينين اللتين تركهما مغمضتين للحظة. الآن يعرف. إنّ الجواب الذي كان ينتظره دون أن يقدّر مسبقا من عند مَن، وإن كانوا كثّر، يختفي هنا، بين هؤلاء الناس، في هذه الساحة. لقد سبق لهاتين الفتاتين أن أعطياه الجواب في تلك الجملة التي كانتا تتسليان في قولها له عند مرورهما وكل واحدة ودورها، كل واحدة ونبرة صوتها وضحكتها. كان السبب المخفي لمغامرته الليلة يُحجب تارة ويُعرّى تارة أخرى، ربما كان أيضا الوسيلة لضمان سلامته. ولكن هذه الجملة، في أية لغة كانت ؟ هل سيجد شَخصا يترجمها له ؟ استدار في مكانه، صعد الشارع واكتشف فرقة كاملة، غير بعيد، كان عددها كبيرا كي تشكّل موكبا، تتقدّم في استعراض، ثمّ دخلت أوائلها، أو بدأت تدخل المقهى على أعقاب بعضها بعض، ذلك المقهى الذي يخرج منه، أو خرج منه، وكان يمكن أن يكون في مكان آخر، في ليلة أخرى، مدينة أخرى. لم يذهب بعيدا، محاصرا بعدم افتراضية ما ينتظره، عدم افتراضية ما يطمح إليه، يراقب تقدمّ أعضاء الفرقة إلى أنْ انغلقَت عليهن الشرفة الشبيهة بحوض الأسماك التي تتدفق على الرصيف وتلمع كما البذرة المتوحشة. أفكار لا

تسلّم نفسها، أمل يغذّى خلال ذلك لإيجاد، لتوقع كلمة اللغز، والتعرف عليها أخيرا، لمعرفة مَن بداخله يقول أنا. لم يتحرّك. في أعلى واجهة المحل، كانت هناك ملصقة ضوئية فكّ حروفها المرتعشة، **هنا حيث يحسّ البشر أحسن بحقيقة الأشياء**، وهي تلمع ببرودة، بفظاظة. لم يتمكّن من إرواء عينَيه منها، وهي مشتعلة في ظلمة السماء. لمْ ينتبه إليها في هذه الليلة – أو ربما خلال ليلة أخرى، في مدينة أخرى. هناك حيث توجد الآن. كان سيُلاحظها لَو كانت هناك، في المكان الذي تلمع فيه الآن. هذا المقهى مَعبد. قضى فيه وقتا ليس بالهين، لا توجد أية إشارة خاصة تعلن عن وجوده، من تلك الإشارات الخاصة التي توضع عند مداخل أمكنة الصلاة والعبادة. ومع ذلك فقد أحس بضجر غامض. ربّما لم يقتل فيه وقتا طويلا ولا يعرف ماذا يفكّر الآن حول الملصّقة التي تلمع فوقه، ولكنه واحد من تلك الأمكنة. وبعد ذلك تدفقت عليه البداهة بكل جنونها : إنه شعار مخصّص للإشهار لفيلم جديد. في الوقت نفسه، تدفّق عليه الصوت الكارثي الآخر :

«أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ»

ليس قريبا ولا بعيدا مثل السابق، ولم يزد شيئا إضافيا.

اتّسعَت عيناه، لم يعد يتعرّف على نفسه، لا يوجد أي معلم يمكن أن يرتكز عليه للتوجيه في هذه الأماكن، هذه الأنحاء التي نُقل إليها فجأة، وأُهمِل. أماكن وأنحاء، لا تذكّره بشيء، ينتظر أن يعثر على معلم ما يوجّهه. إنّ كل ثانية تمرّ هي بمثابة

بئر تبتلع كل شيء، مهما حاول استباق الأمور. لقد حاول إطالة النظر في البنايات الفظّة التي تتقدّم وتحوّل الشارع إلى مضيق تحت الضغط المتضاعف لواجهاتها، وإنْ كانت بعض الظلال ترتطم من بعيد لبعيد بضد الواجهات الزجاجية المتلألئة كالفراشات الليلية المتجوّلة – أين ذهب الحشد، أم أنه في ليلة أخرى، في مكان ما- فراشات ليلية مختلسة يترقبها موت الاستشباحات المؤقّت، فتتبخّر خلسة عبر هذا الطول اللامع، وأية عزلة حينئذ.

عزلة لا تغرب عن بصره، يترقبها مثلما يشعر هو نفسه أنه محل مراقبة شرسة. يراقب كل شيء، ومن ثمة فهو يراقب نفسه. في عمق الشارع هناك، انتفضَت حركة صمّاء. قد تعتني بكل ما يرتجف بخفة شعلة وتوقظ فَجرا ليسَ هو بفجر. أكيد أنّه ليس فجرا، فكان واجبا عليه أن يواجه هذا النور ليعرف ما يجب أن يعرفه.

«إنّ هذا الصوت يتوجّه إليّ. كل هذا الصوت، مع كلماته». يقين يطغى على الباقي، فيتصبّب جسده عرقا. ليفكّر ويتأمل بغضب. وبعد ذلك يأتي الأمل. «إنه سيعرّفني. إنه سيعرِّفني». وبعد ذلك يليه اليأس ويقطر العرق طوال أطرافه. ينزل إلى غاية الأحذية، وتعوم أصابع قدميه في العرق. ولكن جنحة النسيان : إنّه صَوت لا نعثر عليه في ذكرياته. ولكن الاسم : إنّه الصَرف الذي يتوفر لدينا لدفع فدية المنفى وعودتنا بين البشر. يضحك مثلما يدرك المرء حظه وسوء حظه في آن واحد. «أنا شبح إهانة

مجهولة أو مُنكرَة». أنْ يُسَمّي المرء نفسَه، أن يلقّب نفسَه بهذه الطريقة، أو بطريقة أخرى، ولو باسم مستعار، إذا حدث أن يكون قد نسي اسمه، فهذا أفضل من لاشيء. وسيَجده صائبا، ذلك الاسم الذي يكون قد منحه لنفسه، يبدو أنّ الاسم يناسبه تماما مثلما رغبه. كل شيء يساوي ما نفعله الآن، وفورا. لأنّ الذي نفعله غدا، أو آجلا... «سيحرّرني». لا يشك في ذلك ودون أي انتظار يذهب للبحث عن تلك التي سيسألها عن الاسم الذي لم يتمكن من الاحتفاظ به. إنّ الحشد هنا أمامه.

يرفضون تبادل النظرات أو أنهم يزعمون ذلك ولكن هذا غير مهم، إنهم جميعا هنا، متواجدون في الساحة نفسها، في الشارع نفسه، لقد لبّى الجميع النداء، مدّ يصعد دون أيّ صعود، دائما دون صعود ؛ لقد استجابت سيّدات بفساتين سوداء متلألئة، وغجريات مزيّنة كما في يوم عيد، كما استجاب النشالون ومروّجو مخدرات وعمال مقنعون بأقنعة الكرامة المأساوية، ومتنكرون، وغجر «الهيبيز» بكامل زيناتهم على صدورهم، أشخاص على استعداد لإخراج سكاكينهم من أجل نعم أو لا، رجال بأناقة تفوح عطرا من بعيد وهؤلاء المسرنمون العاشقون للحشود، ولكن الأبصار لا تحَيِّ إلا النجمة التي عبرت بروعة فضاءات وعهودا كثيرة، اللبؤة التي تنتقل إلى ظل مظلة شاسعة، فجأة يكسّر الحنين جميع الأبصار، الأبصار اليتيمة.

كما يوجد رجال الشرطة، لا ينبغي أن ننساهم، في رحلة صيد، ربّما هم بصدد الجري في ليلة أخرى، والتعثر على علب كرتونية بريئة. تلك العلب الكرتونية التي أهملها هنا وهناك لاعبو «البونوطو» (لعبة الورقات الثلاث)، ولكنهم سيأتون لأخذها، وإعادة استعمالها، بعد اللحظة القصيرة التي يمرّ فيها رجال الشرطة، وها هم من جديد يستقرون في مخابئ لا تنيرها أضواء محلات البيتزا والمقاهي والمطاعم وقاعات السينما، ولا يصَوْبنها غسيل مصابيح «النيون»، التي تساهم بدورها في الحفل، فتنشر هذه المحلات على طول الأرصفة كامل هذا الكم الهائل من الأنوار المتلألئة التي تجذب المشرّدين، بغمزات متراقصة، وأحيانا بإخراج طرف اللسان مزيدا في هيّاج المحتفلين.

كان الأوائل الذين باشر الاتّصال بهم مراهقين بأجساد مُقولبة في غُمود جلدية سوداء. كانوا واقفين باستقامة، سبعة أو ثمانية، مَهوبو الجانب، بقرب عدد مماثل من الدراجات النارية، بهائم فولاذية ضامرة ومتجمّدة، وقد أدرك بأنه محل أنظارهم الضائعة في الحشد في اللحظة التي بدأ يتكلّم، ولكن تلك العيون تملّصت حينما فكر بالبحث عنها. لم يقل أزيد مما ينبغي قوله، الكلمات الضرورية، فسكت. مرّت دقيقة كثيفة وهو يكتشف بينهم نماذج السوبرمان والأمازون، يتأملهم بحياد بارد. بعد هذه الدقيقة، التحموا بمطاياهم الآلية، فرعدت المحرّكات، وزأرت بصخب، فعمّ هديرها المكان. تراجعت دراجة نارية، لها قرنا كبش وعين سِكلوب، ثمّ انقضّت عليه. تجنّبها ولكن شريطا

من سترته تعلّق بطرف قرن المقود، وقبل أن يقدّر طابع الخسارة، صدمته دراجة ثانية في الظهر ودفعته يترنّح بعيدا. تلقّته ثالثة، وأعادته إلى وسط الدائرة المفتوحة للقادمين، للمتفرجين الجاثمين فوق مركباتهم الآلية والذين واصلوا محاصرة هذا الميدان بالقيام بدورات مستمرة والضغط على دواسات المحركات الراعدة. انبرى للدفاع عن نفسه، مادا ذراعيه، مشكلا قبضتين قويتين. فردّ الصاعَ صاعين ؛ بقدميه أيضا، دخلت قدماه ميدان المعركة فانحطّت واحدة على محرّك، والثانية على عجلة، ولكن الراكب وآلته الجهنمية لم يتزحزحا من مكانهما. ومن بين الفضوليين، تمسّكت به نظرة، سوداء فحمية، جسورة، مختلفة عن النظرات الأخرى الشفافة جدا وبلا عمق، - نظرة، شعاع من وراء عالم آخر. ألقى نظرةً متفحّصة على التجمع الموجود في تلك الدائرة الشيطانية من الحراس الأكثر شيطنة : أظلم الشعاع، انمحى، فلم يجده ؛ لم يعد يعرف.

تجمَّعَت وانْغلقَت عليه في تلك اللحظة. مزّقته جميع تلك الدراجات النارية بكامل العنف (والضغينة) الذي تقدر على إفرازه في حركة واحدة. ولم يعد يعرف شيئا : أشباحٌ تَنهال عليه ضَربا، أشباح واخزة تتساقط فوقه. الموت، لن يمنعَ أحدا من النوم. جاءته فكرةُ الموت كالصرخة المدوية، ومع ذلك لم يجد ما يصرخ من أجله. لا يصرخ، يكتفي بالمشاهدة، يشاهد كل شيء. سَينهَض مِن مكانه وسيكون الوضع كما لو أن شيئا من هذا لم يحدث. وبعد ذلك رأى العجلات، ظلال تلك العجلات، في تلك اللحظة أراد أن يقف، فلم يقدر. أحسّ بالعجلة تنحطّ على

راحة يده. إنّها هي، كان يراقبها منذ فترة ليست بالقصيرة ؛ هي أيضا كانت تراقبه، يتعرّف عليها ، لا تلمسيني، يوجد الآن شبح كبير وخوف رهيب بداخلي، ولا أستطيع الصراخ. هي، تلك المرأة، تنظر إليه، لا تتحرّك. يصْرُخ باتّجاهها في صمت، إنها لا تعرف، فهي لا تسمعه.

وفي تراجعها أيضا، قامت جميع تلك الدراجات النارية بالتدحرج إلى الخلف، في ثانية واحدة، ثانية كان يمكن أن تدوم دهرا ، لقد منحته الإحساس بذلك، وإلى غاية ثانية جديدة حيث أنّ ذلك الذي وقف وأجهد نفسه سقط من جديد، حيث سحقت جسدَه جميعُ تلك العجلات المدبّبة، لكل واحدة من تلك الدراجات الخاصة بالسباق، ودراجة تلك الفتاة تنقضّ عليه وتطلق طقطقاتها الراعدة أكثر من الأخريات، ومن جديد تلك النظرة، من جديد تنْغَرس فوقه، تضغط، بسوادها الفحمي، شعاع من ما وراء العالم، – ليست واحدة من تلك النظرات الشفافة جدا والخفيفة جدا والتي تحيط به. والآن، كما لو أنّه يحمل صخرة. أضحت ثقيلة، ثقيلة جدا... قريبا سوف لن يقدر على حملها ؛ وحول الصخرة الخوف. صخرة، خوف، يدوران. كل شيء يدور، ولكن الصخرة أكثر من غيرها. وماذا بعد ؟ سقطتُ على ذلك الرصيف. وماذا بعد ؟ سيحدث شيء. الشك. ألصِقُ يديَّ بصلابة ضد الأرض كي أمسك به، الإمساك بما كانَ، إمساك نفسي، التي لا يدفعها شيء : حماية ما هو موجود ، ضد ما سيكون.

بفظاظة رعناء، كسّر صمتَ الليل الملائكةُ أصحابُ الغُمود الجلدية، في اندفاع مهول لدراجاتهم الجهنمية المنقضّة على المتجوّلين المذهولين الذين لم يجدوا من حلٍّ للحيلولة دون اصطدامهم إلا القفز على الأرصفة. وهُو : لا أزال ممدّدا على هذا الرصيف. أنا ممدّد بقرب فوهة مزراب، ميدالية، قطعة نقدية، مدوّرة كما شمس منطفئة. تلك التي سأمنحها لدفع ثمن مروري. لقَد تَمّ وضعها هنا، أمامي، من أجل هذا. سوف لن يبقى فعل شيء بعد هذا. مثلما انهار : على الجانب، الساقان مضمومتان ومطويتان، الركبتان صاعدتان نحو البطن، بقي كذلك ولم يمت. وكان «نيون» المصابيح كما هلال بلا قمر، يسقط مستقيما داخل العينين المفتوحتين على اتساعهما، وكان جميلا، لطيفا كما الهلال.

لمْ يتأخّر رجلٌ قصير من الانفصال عن دائرة الفضوليين، شخص ليس أكثر تشبيها ولا غفلا ولا غرابة عن ذلك الحشد. كما انفصلَت نظرةٌ من عينيه السوداوين، بسواد ليلة بلا بؤبؤ، وتوقّفت على ذلك الذي كان ملتصقا بالأرض. إنّه قصير ذلك الرجل، ومع ذلك ينحني كثيرا، متخذا هيئة شخص يستمع إلى صوت بعيد، يستمع إلى صمت ما وراء ذلك، في مكان ما. أما الآخر، المجروح، المسحوق، فيقبع بين قدميه وبين فوهة المزراب، كعلبة مرمية من ملابس ولحوم بلا حياة. فينحني أغرب شخص لهذا الحشد، يرفع له رأسه، يقرّبه إلى صدره. يضغط طويلا جسدَ الجريح إلى جسده، دائما في الاستماع. بعد ذلك، بعد كل هذا الوقت، همَس له في الأذن :

«وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ؛ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ؛ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ؛ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ؛ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ؛ إِنَّ الإِنْسانَ لِربِّه لَكَنُودٌ ؛ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ؛ وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ؛ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ؛ وَحُصِلَ مَا فِي الصُّدُورِ ؛ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ» لا يخرج أيّ صوت من شفتيه المتحركتين، تتحرك شفتاه دون صوت. ولا يوجد أيّ منجّم ولا أيّ نبي ملتح ومهذار كي يعلن عن نهاية الزمان أو شيء من هذا القبيل. كما لا يوجد متشككون أيضا، شباب أو شيوخ، ليصفقوا أو يهزأوا من هذا المشهد ؛ لا يمنح الشعب صلواته. لقد قيل كل شيء، لم يُقَل شيء، ليست هي ليلة الإفصاح الكبير، لقد مرت، أو أنها آتية. في العمق الآهل بالفضوليين، ربما أبعد، رنّت ضربات كما في الصحراء، ولكنها لم تكسّر الصمت المخيّم. كانت الأصنام الحجرية المنتصبة في المحيط تنظر بجميع عيونها الحجرية. إنها الوحيدة القادرة على سماعها. سوف لن يكون القطف إلا حجرا.

يأخُذ الرجلَ الكبير والأقوى منه بين ذراعيه، وبعد أنْ أوقَفه على قدميه، تقدّم نحوه. تقدّم الآخر. ذلك الآخر المُسنَد وهو يفكّر : «حينما أقوم بثلاث خطوات إضافية، سأكون قد دخلت إلى حيث يجب، وسأتذكّر». حارقة، محمرّة، من ذهب، من الأخضر العتيق : العاصفة التي تلمس وجهه. كما تلمس أيضا آفاق السهول التي رفعها لهيب الهواء باتجاه المرتفعات الأكثر شسوعا. يحدّق في هذا البلد والنهار المنقضّ عليه، يستنشق

الرائحة اللانهائية، النفَس الحارق ؛ بلد سابق للزمان، يوم لا ينسجم إلا مع نفسه، مكان العودة...

واصل الرجلُ القصير، الأكثر غرابة في هذه المدينة، التقدّمَ نحوه، حمله الآن وهو يلهث. لا يمكن إلا أنْ يحمله، إنّه كبير وقوي. ولكنه سيسلمه قريبا إلى امرأة تطالبه، امرأة جاءت راكضة تبحث عنه.

نرى هذه المرأة (هل يزيد حبّنا لها) ؛ نراها تقطع الحديقة بحقيبة أو علبة تتدلى على طرف أحد ذراعيها، لا نعرف شيئا عنها، لا شيء عن أفكارها، كما أنها لا تعرف شيئا عن النظرة التي تتبعها، شخص على نافذة، يدعو لها : ليكون الوضع هكذا دائما، لا تتركها تموت يوما، يا أنتَ الذي تقدّر كل شيء.

في العالم الآخر، سأراها كذلك تَمشي في ممرّ شبيه بهذا وسأردّد هذه الكلمات.

... سوادٌ أكثر سوادا من الأسود.

... أفكار تعبُر هذا السواد كما الشواقير المتلألئة.

هل يجب على كل شيء أنْ يحدث متأخرا ؟ ينبغي العيش مع الشرّ. إنّه شرّنا، حتى وإنْ مُتنا بسببه. دخلَت وفي يدها كيس مؤن.

«أتعرفين ماذا، آنسَتي ؟ بمجرّد خروجي من هنا، سأذهب لأستقرّ في جرفير، لأَعيش في جرفير بقية أيامي. أتعرفين، لقد عثرت على عنوان الفيلم الذي رأيته هناك. استرجعته دون عناء، For ever... وسأجد آييل أيضا.

إيد، أنتَ في جرفير. أنا آييل.

أييل. آه، أييل... إنّها هناك في جرفير».